الفصل الثاني

الافتتاح بالثناء

المبحث الأول

سورة الأنعام

«عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ما نزل عليَّ سورة من القرآن جملة غير سورة الأنعام ، وما اجتمعت الشياطين لسورة من القرآن جمعها لها ، وقد بعث بها إلى مع جبريل مع خمسين ملكا ، أو خمسين ألف ملك يزفونها ، ويحفونها ، حتى أقروها في صدري ، كما أقر الماء في الحوض ، ولقد أعزني الله وإياكم بها عزا لا يذلنا بعده أبدا ، فيها دحض حجج المشركين ووعد من الله لا يخلفه»[1] .

وتروى روايات كثيرة بشأن هذه السورة[2] ، هذه الرواية أجمعها ، وكانت كلمة النبي ﷺ محل استنباطات للسلف مقابلة بالنظر في جريان المعاني في السورة الكريمة ، ومقارنة بتركيب مطلع هذه السورة ، فقد عزا القرطبي إلى العلماء أنهم قالوا : «هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة ، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة»[3] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٠٧/٦ .

(٢) يراجع مثلا : تفسير ابن كثير ١١٢/٢، والجامع لأحكام القرآن ٢٣٦٨/٣، والفتوحات الإلهية ٢/٢، وحاشية الصاوي على الجلالين ٢/٢ وغير ذلك .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٦٩/٣ .

وما ذكروه ـ كما ترى ـ من كلمة النبي ﷺ ـ «فيها دحض حجج المشركين . . . . وكلام الأئمة فيه بيان ظاهر باتحاد مقصود السورة وتصريف الأساليب في سبيل الوفاء به ، وذلك هو ما استقر لدى البقاعي ـ رحمه الله ـ يقول في بيان مقصود السورة : «ومقصودها : الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب في السور الماضية من التوحيد ، بأنه ـ سبحانه ـ الحائز لجميع الكمالات من الإيجاد والإعدام ، والقدرة على البعث وغيره ، وأنسب الأشياء المذكورة فيها لهذا المقصد الأنعام ، لأن الإذن فيها سبب في قوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ . . . ﴾ عما ثبت له من الفلق ، والتفرد بالخلق وتضمن باقي ذكرها إبطال ما اتخذوه من أمرها دينا ، لأنه لم يأذن فيه ولا أذن لأحد معه لأنه المتوحد بالألوهية لا شريك له ، وحصر المحرمات من المطاعم التي جلها في هذا الدين وغيره على إحاطة علمه باللازم عند شمول القدرة وسائر الكمالات ، وذلك عين مقصودها»[1] .

فمقصود السورة هو إثبات الألوهية ، وكان تقرير هذا المقصود معينا البقاعي على بيان وجوه لمشتبه النظم في هذه السورة الكريمة وكان في بيانه ـ رحمه الله ـ مقنع ، فهو ينظر إلى اللفظة ، وعينه على السورة كلها ، بل بعين سياقاتها في الذكر الحكيم كله ، فالمقصود في كل سورة هو السلك الخفي الذي ينتظم تراكيبها ودونك كلامه .

يقول عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ . . . ﴾ «ولما ثبت بالوحدانية والنبوة والرسالة ، وتفاريع من تفاريعها ، وانتهى الكلام هنا إلى ما تجلى به مقام العظمة . . . قال : ـ دالاً عليه ، مشيرا إليه ، معلما أن ما مضى أنتجه وأظهره ـ لابد ـ وأبرزه ، مذكرا بآياته . . . وبمحاجة

(١) مصاعد النظر ١١٨/٢ .

إبراهيم عليه السلام مصرفا ما مضى أول السورة من دلائل الوحدانية ، على أوجه أخرى ، إعلاما بأن دلائل الجلال تفوق عدد الرمال ، وتنبيها على أن القصد بالذات معرفة الله تعالى بذاته وصفاته »[1].

والبقاعي في كلامه مهتدٍ بكلام ابن الزبير في بيان مناسبة الأنعام للمائدة ومجمل كلامه أن السور الماضية تكفلت بالرد على اليهود والنصارى ، وهذه السورة اختصت بالرد على مشركي العرب ، والمجوس الذين لم يتقدم لهم ذكر « فبدأ ـ تعالى ـ بذكر خلق السموات والأرض التي عنها وجد النور والظلمة . . . ثم جرت السورة من أولها إلى آخرها منبهة على بسط الدلالات في الموجودات ، مع التنبيه على أن ذلك لا يصل إلى استثمار فائدته إلا من هدى بحسب السابقة ، فقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ** ﴾ وهو ـ والله أعلم ـ من نمط ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ** ... ﴾ أجمل هنا ، ثم فسر بعد في السورة بعينها »[2].

وهو بكلمته الأخيرة يقفنا على تناغي تراكيب السورة الواحدة ، وذلك باب في البلاغة دونه خَرْطُ القَتَاد ـ والبقاعي ـ رحمه الله ـ يوجز هذه المناسبة التي بسطها ابن الزبير فيقول : « ولما تكفلت السور المتقدمة بالرد على مشركي العرب واليهود والنصارى ، مع الإشارة إلى جميع أنواع الشرك ، سيق مقصود هذه السورة في أساليب متكفلة بالرد على بقية الفرق »[3] .

---

(١) نظم الدرر ١٩٤/٧ .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ، ص٩٠-٩٢.

(٣) نظم الدرر ٦/٧ .

وتأتي كلمة السيوطي في المناسبة تقريرا لكلام السابقين واستنباطا وتفريخا لأقوالهم ، يقول : رحمه الله ـ في بيان المناسبة : « أنه لما ذكر في آخر المائدة ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ على سبيل الإجمال ، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله فبدأ بذكر ، أنه خلق السموات والأرض ، وضم إليه أنه جعل الظلمات والنور . . . ثم أكثر في أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء ، لما فيهن من النيرين والنجوم ، وفلق الإصباح . . . ثم لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والملك أكثر فيها من ذكر الرب الذي هو بمعنى المالك ، والخالق ، والمنشئ واقتصر فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنساني والملكوتي . . . فقد جمعت هذه السورة جميع المخلوقات بأسرها ، وما يتعلق بها ، وما يرجع إليها فظهر بذلك مناسبة افتتاح السور المكية بها ، وتقديمها على ما تقدم نزوله منها . . . ولما كانت هذه السورة لبيان بدء الخلق ذكر فيها ما وقع عند بدء الخلق وهو قوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ . . . ﴾ »[1] مع مراعاة تكرر هذا التركيب ، واختصاص السورة به دون سائر السور ، وتناسب ذلك مع المطلع في الآية الثانية .

وكلام السيوطى ـ رحمه الله ـ بيّنٌ في علاقة مطلع السورة لا بمقصودها فحسب ، بل بتراكيب معانيها ، وهيئة تصريفها بشتى الأساليب في السورة مع ضميمة ما قرره البقاعي من مقصود السورة ، وهو ما يقتضينا إحصاء المعاني المذكورة في السورة ، وإحصاء ألفاظها وتدبر ما شاع من الألفاظ فيها ، مقارنين كل ذلك بسور القرآن الكريم كله ، ومن الأمثلة التي ذكرها

(١) تناسق الدرر ص٩٧-١٠١ .

البقاعي ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الأنعام:١٢٨) مقارنا إياه بقوله تعالى : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ (هود:١٠٨) : « ولما كان القصد في هذه السورة إلى إظهار العظمة للغيرة على مقام الإلهية عبر بالاسم الأعظم فقال : الله »[١] .

مركَبٌ صعبٌ ذلك الذي ركبه البقاعي في تفسير مشتبه النظم يقول أيضا عند قوله تعالى : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ (الأنعام:١٣٠) مقارنا إياه بقوله : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ (الزمر:٧١) « ولما كان النظر في هذه السورة إلى العلم غالبا لإثبات تمام القدرة الذي هو من لوازمه بدليل قوله : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ و ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ و ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ وغيرها ولذلك أكثر فيها من ذكر التفصيل ، الذي لا يكون إلا للعالم كان القص ـ الذي هو تتبع الأثر ـ أنسب لذلك ، فقال : يقصون ... »[٢].

مع ضميمة أن السورة اختصت بالإكثار من الإعلام بتفصيل الآيات فقد وقع لفظ (نفصل) مرة ولفظ (فصل) أربع مرات[٣] ، ولم تحظ بذلك سورة أخرى .

قال محمد بن جرير عند قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأنعام:٥٥) « يعني ـ تعالى ذكره ـ بقوله :

---

(١) نظم الدرر ٢٦٩/٧ .

(٢) نظم الدرر ٢٧٢/٧ .

(٣) الآيات ، ص ٥٥، ٩٧، ٩٨، ١١٩، ١٢٦ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ . . . ﴾ وكما فصلنا لك في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها يا محمد إلى هذا الموضع حجتنا على المشركين من عبدة الأوثان ، وأدلتنا ، وميزناها لك وبيناها كذلك نفصل لك إعلامنا وأدلتنا في كل حق ينكره أهل الباطل من سائر أهل الملل غيرهم»[1].

وكان تراث السلف ـ كما ترى ـ نورا من نور كلمة النبي ﷺ في شأن هذه السورة ، واستنباطا من ذلك تخالف الأستاذ سيد قطب مع قول العلماء : بأن السورة مكية « إلا ست آيات فإنها مدنيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ (الأنعام:١٥١) إلى آخر الآيات الثلاث ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (الأنعام:٩١) وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (الأنعام:٢١)»[2] تخالف معهم فقال بأن السورة مكية ومجمل ما رد به قولهم دليلان : أولهما : احتمال الأدلة التي وردت بشأن مدنيتها ، ثانيهما : عدم احتمال السياق لمدنيتها ، فالسورة «في جملتها تعرض حقيقة الألوهية وتعرضها في مجال الكون والحياة ، كما تعرضها في مجال النفس والضمير ، وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود . . . ويكاد اتجاه السورة كله يمضى إلى هذا الهدف المحدد من أولها إلى آخرها»[3] وهو أرجح لقول النبي ﷺ السابق ، ولبعده عن التأويل ، ولتوافقه مع تراكيب السورة وجريان المعاني فيها .

وقد ذكر ابن عاشور أن السورة «أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية وأشدها مقارعة جدال لهم ، واحتجاج على سفاهة أحوالهم من

---

(١) جامع البيان ١٣٤/٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٠٥/٦ .

(٣) ينظر في ظلال القرآن ١٠١٦/٢-١٠١٨ وما بعدهن .

قولـه : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ (الأنعام:١٣٦)»[١]. وهو ناظر إلى قول النبي ﷺ ، وقول ابن عباس : «إن سرك أن تعلم جهل العرب ، فاقرأ الثلاثين ومائة من سورة الأنعام»[٢] .

فى نور ما أوردناه من قول السلف نقرر أن مطلع السورة قولـه تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (الأنعام:١ ، ٢) .

يقول الدكتور عبد الله شحاته مشيرا إلى هذا المطلع ، «ذلك هو مطلع السورة . . . وكل ما جاء في هذه السورة ، إنما هو بيان وتفصيل ، أو تمثيل وتطبيق على هذه الحقيقة أحيانا بصفة مباشرة ، وأحيانا بوسائط تقرب أو تبعد ، وهذا هو المعنى الذي يعبر عنه بعض العلماء بأنه الحكم بتوحيد الألوهية ، استدلالا بوحدانية الربوبية»[٣].

فالعلاقة بين مطلع السورة وتراكيبها هي علاقة الإجمال ثم التفصيل ، تلك العلاقة التي لم يتبين لنا غيرها في الذكر الحكيم إلى هذه السورة ، وأمر المطلع عند الشيخ عبد المتعال الصعيدي على غير هذا الوجه فهو يقول : «وقد ابتدئت بإثبات التوحيد والنبوة تمهيدا لمناظرة المشركين فيهما ، وختمت ببيان أن النبي ﷺ ليس في شيء منهم بعد أن قام بإبطال شبهتهم»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير الأنعام ص١٢٥ .
(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى كتاب التفسير ٨/١٤٠ .
(٣) أهداف كل سورة ومقاصدها ص٧٩، ٨٠ .
(٤) النظم الفني في القرآن ص٩٩ .

واستوقفت عناصر مطلع السورة كثيرا من المفسرين ، دأب القرآن الكريم في مطالع السور ،فقد استوقفهم الافتتاح بالحمد ،والفعلان ﴿ خَلَقَ ﴾ و ﴿ وَجَعَلَ ﴾ و ﴿ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ و﴿ ثُمَّ ﴾ وبتعلق الباء في ﴿ بِرَبِّهِمْ ﴾ ، ومعطوف قوله : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ، وموقع الآية الثانية من الأولى ، وكان في كثير من توجيهاتهم نظر إلى جريان المعاني في السورة الكريمة وكشف عن خصائصها .

قال القرطبي : « بدأ ـ سبحانه ـ فاتحتها بالحمد على نفسه وإثبات الألوهية . . . فإن قيل : فقد افتتح غيرها بالحمد لله ، فكان الاجتزاء بواحدة يغني عن سائره . فيقال : لأن لكل واحدة منه معنى في موضعه لا يؤدي عنه غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة وأيضا فلما فيه من الحجة في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون »[1] .

وهذه الجملة تفيد القصر كما هو مقرر في طرائق اللسان : ويقول أبو السعود ـ رحمه الله ـ : « الحمد لله ، تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة أولا باسم الذات الذي يدور عليه كافة ما يوجبه من صفات الكمال ، وإليه يئول جميع نعوت الجلال ، والجمال للإيذان بأنه ـ عز جل ـ هو المستحق له بذاته »[2] وإثبات الألوهية هو مقصود السورة وهو مجمل في مطلعها كما ترى ـ وقد وصف الخبر باسم الموصول ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ ، وكما ترى جملة الصلة والجملة المعطوفة تابعة للصلة ، والنعت من التوابع كما هو مقرر ، وهذا التركيب للمطلع مؤذن بأن قضايا الخلق وإثبات القدرة الواردة في السورة ، واردة في

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٤٦٩، ٢٤٧٠ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/٤ بهامش الفخر الرازي .

سبيل الوفاء بالمقصود الأصلي الذي هو إثبات الألوهية ، والذي قررته الجملة الأولى .

وقد تتابعت أقوال السلف في بيان الفرق بين (خلق وجعل) ، قال جار الله : « والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير ، وفي الجعل معنى التضمين »[١] .

وحرر القاضي البيضاوي مثالته فقال : « ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمات بالجعل تنبيها على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت المثنوية »[٢] .

وقال أبو حيان : « والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير ، وفي الجعل معنى التبصير كإنشاء شيء من شيء »[٣] .

وعبارة أبي السعود « وجعل . . . عطف على خلق مترتب عليه ، لكون جعلهما مسبوقا بخلق منشئهما ومحلهما داخل معه في حكم الإشعار بعلة الحمد »[٤] .

« فالخلق إنشاء وإبداع ، والجعل تصريف وتقليب والعالم أجمع في دائريتهما فلا ينفك شيء منه عن كلا هذين المظهرين »[٥] .

فقد جاءت الجملة الثانية تابعة للأولى التي هي جملة الصلة ، وقد وقع اسم الموصول تابعا للجملة الأولى ، وهيئات التراكيب في السورة الكريمة

---

(١) الكشاف ٣/٢ .
(٢) أنوار التنزيل ٣٠١/١ .
(٣) البحر المحيط ٦٨/٤ .
(٤) إرشاد العقل السليم ٤/٤ .
(٥) أهداف كل سورة ومقاصدها ص٧٩ .

تأخذ نفس الطريق في بناء المعاني ، كما سنحاول بيانه ، وداخل الجملة المعطوفة على جملة الصلة طباق ﴿ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ له أثر في سير المعاني ، وقد ذكروا أن المراد بهما المحسوسات ، «ونقل الواحدي عن ابن عباس أنه قال : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ أي ظلمة الشرك والنفاق والكفر ، والنور يريد نور الإسلام والإيمان والنبوة واليقين»[1] .

وقال الواحدي أيضا : «والأولى حمل اللفظين عليهما معا»[2] وهو ما نرجحه لما سنذكره ، والعلة في جمع الظلمات وإفراد النور عند الزمخشري «القصد إلى الجنس . . . أو لأن الظلمات كثيرة»[3] .

والعلة عند أبي السعود أنه «جمع الظلمات لظهور كثرة أسبابها ، ومحالها عند الناس ، ومشاهدتهم لها على التفضيل»[4] .

وكل ما ذكروه وبسطوه من التوجيهات له علاقة بجريان المعاني في السورة ، ثم تأتي جملة أخرى في المطلع ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ وقد ذكر المفسرون أن ﴿ ثُمَّ ﴾ «استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته»[5] .

وقال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «ثم دالة على قبح فعل الكافرين ، لأن المعنى : أن خلقه السموات والأرض قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد ذلك كله عدلوا بربهم ، فهذا كما تقول : يا فلان

(١،٢) مفاتيح الغيب ٢١٩/٦ .

(٣) الكشاف ٣/٢ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٦/٤ .

(٥) يراجع الكشاف ٤/٢، ومفاتيح الغيب ٢٢٠/٦، والبحر المحيط ٦٩/٤ .

أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ، ثم تشتمني ، ولو وقع العطف بالواو في هذا ونحوه ، لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم»[1].

ثم اختلفوا في معطوف هذه الجملة ، إما أن يكون «هو قوله : ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾ فيكون المعنى (أن الله ـ سبحانه ـ حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته) أو هو قوله : ﴿ **خَلَقَ** ﴾ على معنى (أنه خلق ما لا يقدرعليه أحد سواه ، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه) وتكون الباء على الأول متعلق بكفروا وصلة يعدلون محذوفة ، أي يعدلون عنه ليقع الإنكار على نفس الفعل ، وعلى الثاني متعلقة بيعدلون ، والمعنى : أن الكفار يعدلون بربهم الأوثان ، أي يسوونها به»[2] ، والكل داخل تحت الصلة ، كأنه قيل : «الحمد لله الذي كان منه تلك النعم العظام ثم من الكفرة الكفر»[3] .

والذي يعدل بربه الأوثان لا بد أن يحاج للعادل به ربه ، ولعل السلف استنبطوا من هنا أن السورة أصل في محاجة المشركين وهي داخل في جملة الصلة وجملة الصلة تابعة للجملة الأولى التي هي قضية السورة ، هذا النظام النحوى للمطلع يكشف لنا عن خيوط المعانى في عرض السورة ، ووفائها بالمقصود الأول ، مع ملحظ مهم جدا هو أنني سأحيل فيما استنبطه على ما ذكره السلف في تركيب المطلع وما بينوه من كونها سورة الحجاج .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٤٧٣ .

(٢) أنوار التنزيل ١/٣٠٢ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٤/٩ .

ويأتى بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ (الأنعام:٢) وهو «استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمان به ، إثر بيان بطلان إشراكهم به تعالى ، مع معاينتهم لموجبات توحيده»[١] ، ثم عطف عليه قوله : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ وذكروا أن ﴿ ثُمَّ ﴾ «استبعاد ، لأن يمتروا فيه بعدما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم»[٢] .

فقد ذكر في المطلع قضايا أولها (إثبات الألوهية) ثم موجباتها (القدرة الحائزة لجميع الكمالات) ثم (استبعاد المحاجة في القضية الأولى) ثم (قضية البعث) ثم (استبعاد المحاجة فيها) ، لأن المحاجة فيها محاجة في القضية الأولى .

وقد ورد في المطلع جملتان ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ، ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ ، فالمحاجة هي الطابع البلاغي لهذه السورة ، وهو أمر ظاهر في المطلع بذكر هاتين الجملتين ، مع ملحظ مهم أن الجملتين عطفتا بثم ، ومعناها الاستبعاد كما ذكر العلماء ، ويستنبط من ذلك ، احتواء هذه السورة الكريمة لمعاني قدرة الله بتراكيب تفوق نظائرها في الذكر الحكيم مع اليقين ببلاغة التراكيب الأخرى في مواضعها لتناسبها مع مقصود ما سيقت له السورة ، وإثبات هذا الأمر يقتضينا استقراء معاني القدرة في السورة من حيث تراكيبها ، مقارنة باستقراء معاني القدرة في الذكر الحكيم من حيث تراكيبها أيضا ، وذلك لإثبات صحة هذه الدعوى . وقد ذكر البقاعي ـ رحمه الله ـ صورا من النظر إلى التراكيب من هذه الجهة كما مضى بيانه في السورة .

---

(١) إرشاد العقل السليم ٩/٤ .

(٢) يراجع الكشاف ٤/٢، ومفاتيح الغيب ٢٢٠/٦، والبحر المحيط ٦٩/٤ .

ودونك ما استنبطناه من هيئة تركيب المطلع ، ناظرين إليه بمقولات السلف . وجود هذا الطباق في مطلع السورة ﴿ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ بين لنا هيئة جريان معاني الهدى والضلال في هذه السورة حتى صار من خصائصها ، فقد ذكرت مادة (هدى) ومتصرفاتها في أربعة وعشرين موضعا من سورة الأنعام[1] ، ومادة (ضل) ومتصرفاتها في أحد عشر موضعا[2] .

ومع أن مادة (هدى) ومتصرفاتها وَقَعَتْ في البقرة في تسعة وعشرين[3] موضعا ، ومادة (ضل) ومتصرفاتها وقعت في النساء في ثلاث عشر[4] موضعا إلا أن المادتين لم تقعا متقابلتين دائما كما وقعتا متقابلتين في سورة الأنعام غالبا فهذه على سبيل المثال خصيصة لجريان المعاني في السورة رغم ورودها في سورة أخرى ، وأنبأنا المطلع بهذه الخصيصة كما ظهر . يتدبر مثلا قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ ۙ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (الأنعام:٥٦) وقوله : ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الأنعام:٧٧) والذي لم يقع من مادة الضلال مقابلا لمادة الهدى يتقابل مع ما يقارب معناها مثل قوله تعالى : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (الأنعام:٣٩).

---

(١) الآيات : ٣٥، ٥٦، ٥٧، ٧١، ٧٧، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٧، ١١٧، ١٢٥، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٤، ١٥٧، ١٦١ .

(٢) الآيات : ٢٤، ٣٩، ٥٦، ٧٤، ٧٧، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٤٠، ١٤٤ .

(٣) الآيات : ٢، ٥، ١٦، ٢٦، ٣٨ ٥٣، ٧٠ ٩٧، ١٢٠ ١٣٥، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٠، ١٥٧، ١٥٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٨٥، ١٩٨، ٢١٣، ٢٥٨، ٢٦٤، ٢٧٢ .

(٤) الآيات : ٤٤، ٦٠، ٨٨، ١١٣، ١١٦، ١١٩، ١٣٦، ١٤٣، ١٦٧ .

ويمكن أن ينظر بما قررناه من كلام السلف في المطلع إلى محاجة إبراهيم عليه السلام قومه ، فهي محاجة في الألوهية ، واستدراج للخصم ومجاراة له وهذا من أصول المناظرة وتكررت في ثنايا هذه المحاجة مادتا (الهدى والضلال) ومادة (أفل) الدالة على الإظلام ، وكان النور والإظلام مطيتين لإبطال حجج قوم إبراهيم عليه السلام ثم نبه النظم المعجز على ارتباط هذه المحاجة بالمقصود الأول للسورة ، حتى يتنبه للخيط الذي ينتظم السورة الكريمة ، لذلك كان نهاية الحجاج قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾(الأنعام:٧٩).

يتدبر ـ في ذلك أيضا من قبل المحاجة ـ هذا التشبيه ، وعلة اختصاصه بالسورة في نور ما قرر من أمر المطلع قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (الأنعام:٧١) ويتدبر تراكيب هذا التشبيه مقارنا بما يقاربه في الذكر الحكيم ، ومثل آخر هو قوله تعالى : ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ (الأنعام:١٢٢) .

وبعد ذكر الأنبياء وترتيبهم ترتيبا متخالفا مع الترتيب التاريخي يشير إليهم النظم بعين التعظيم ﴿ **أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ** ﴾ (الأنعام:٩٠) تدبر هذا الخيط خيط الهدى والضلال إلى آخر السورة يقول ربنا : ﴿ **قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام:١٦١) .

وشيء آخر مستنبط من نور مطلع السورة أيضا ، ومن كلام النبي ﷺ (فيها دحض حجج المشركين) وقول العلماء (السورة أصل في محاجة المشركين) . وهو أمر ظاهر في جريان معاني هذه السورة ، ولما كان الحجاج في السورة في النبوة ، وتوزعت شبهاتهم على السورة الكريمة ، وظن أن السورة متعددة القضايا ، وتخالف هذا الظن مع ما ارتضيناه من كلام أهل البصيرة من توحد مقصودها . كان في السورة ما يرد هذا الظن ، والذي يؤيدنا في ذلك اختصاص السورة بقوله تعالى : ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ (الأنعام:٣٣) .

فالمحاجة في القضية الأولى (إثبات الألوهية) في شخص المرسل بها ﷺ .

وقد تفرد محمد بن جرير ـ رحمه الله ـ فيما أعلم ـ باستصحاب معنى قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ في كل خطاب وجه للمشركين وكل حديث نسب إليهم ، وكل قول أسند للنبي ﷺ فهو عند لفظ (قل) يقول دائما : « قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم » وعند (قالوا) يقول : « وقال هؤلاء العادلون بربهم » وعند قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ** . . . ﴾ يقول : « يقول ـ تعالى ذكره ـ لهؤلاء العادلين به الأصنام »[1]

(١) يراجع في ذلك مثلا هذه الصفحات من الجزء السابع : ٩٩، ١٠١، ١٠٤، ١٠٨، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٨، ١٢٢، ١٢٥، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ١٤١، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٧٤، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٩ ، والجزء الثامن : ٢، ٧، ٨، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٨، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٧٠، ٧٦، ٨٢، ٨٣، ٨٤ .

مع خصيصة أخرى لهذه السورة الكريمة بشأن المحاجة ، فقد تكرر لفظ (قل)[1] إملاء لرد الحجة على النبي ﷺ في السورة تكررا لا نظير له في الذكر الحكيم .

وقد توزعت شبهات المشركين في النبوة في السورة كما يلي[2] فقد كانت الشبهة الأولى قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ** ﴾ (الأنعام:٨ ، ٩) ، وقد استغرق الرد على هذه الشبهة إلى الآية (٣٦) المختتمة بآية هداية هي قوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ** ﴾

(الأنعام:٣٥) .

وفيها تمهيد للشبهة الثانية ، ففيها حرص النبي ﷺ على الإتيان بالآيات ، وكانت تلك شبهتهم الثانية التي تبدأ بقوله تعالى:﴿ **وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ (الأنعام:٣٧) واستغرق رد هذه الشبهة السورة إلى الآية (٩٠) .

---

(١) الآيات من سورة الأنعام : ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٩، ٣٧، ٤٠، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧١، ٩٠، ٩١، ١٠٩، ١٣٥، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٨، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤ .

(٢) استنبطنا هذا التفسير مما كتبه الشيخ عبد المتعال الصعيدي في ، النظم الفني في القرآن ، الصفحات ٩٩-١١٠ .

وفي تركيب الشبهة ما يؤمئ إلى بسط رد هذه الشبهة ، فأنت خبير بالفرق بين (نزل) بالتضعيف و (أنزل)[1] ، وفي أثناء هذه الشبهة كان الحديث عن البعث فيه طابع المحاجة الذي أنبأ به مطلع السورة ، يستنبط ذلك باستظهار المصحف الشريف ، مع تدبر أغراض التقديم والتأخير والحذف والذكر والتعريف والتنكير ، والتصوير البياني ، وغير ذلك من مسائل فن البلاغة .

ثم تأتي الشبهة الثالثة ، وكان في قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ** ﴾ (الأنعام:٩٠) تمهيد لها ، حيث ذكر الأنبياء ، وآية الشبهة هي قوله تعالى : ﴿ **وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا . . .** ﴾ (الأنعام:٩١) .

مع ملحظ مهم في هذه الشبهة هو تشبيه التوراة بالنور ، وعطف الهدى عليه والنور من أسباب الهدى ، وهذا التشبيه ناظر إلى مطلع السورة الكريمة ، لأن كتاب موسى عليه السلام شبه بالإمام وبالبصائر ، وبالضياء في مواطن أخرى من الذكر[2] الحكيم تناسبا مع مقاصد السور التي جاء فيها ، وقد استغرق رد هذه الشبهة من الآية ٩١ إلى الآية ١٠٨ .

ودونك آية النجوم فهى ناظرة إلى مطلع السورة أيضا قال تعالى:﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ...** ﴾ (الأنعا:٩٧)

---

(١) فالأولى تفيد التكثير فمن المقرر أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى فهم كما يومئ هذا لفعل يطلعون بآيات كثيرة ، أما الصيغة الثانية فلا تفيد التكثير ، كما ذهب إليه بعض العلماء ، والأظهر أن ذلك يرجع إلى السياق .

(٢) هود ١٧، والأحقاف ١١، والأنبياء ٤٨، والقصص ٤٣ .

فالنجوم ترد في الذكر الحكيم للزينة ، وغير ذلك ، وجاءت علامات للهداية في سورة النحل ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ (١٦) .

والبناء على غير ما ترى ، وكل ما في السورة من آيات البعث والقدرة ناظرة إلى المطلع في تركيبها .

ثم تأتى الشبهة الرابعة في الآية (١٥٩) بقول الله تعالى : ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ واستغرق رد هذه الشبهة السورة إلى الآية (١١٧) .

وجاءت الشبهة الخامسة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ (الأنعام:١٢٤) وقد استغرق رد هذه الشبهة السورة إلى الآية (١٤٧) .

وقد وقع بعد هذه الشبهة قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ . . . ﴾ (الأنعام:١٢٥) وهذا التمثيل متناسب جدا مع شبهة المشركين التي تدل على إفلاسهم في الحجج ، وفي معادلتهم الأصنام بربهم ، وكان هذا التمثيل من خصائص هذه السورة .

والشبهة السادسة هي قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾ (الأنعام:١٤٨) واستغرق رد هذه الشبهة السورة إلى الآية (١٥٨) .

وهذه الشبهة ناظرة إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ (الأنعام:٣٥) ، مع تدبر ما شاع في السورة من مادة فطر ، وخلق ،

وفلق ، وجن ، وأفل وغير ذلك من الألفاظ المتناسبة مع تراكيب مطلع السورة الكريمة ، ولعل أهل الجدل كان لهم نظر واسع في هذه السورة .

ثم كان ختام السورة بقوله : ﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام:١٦١) وإملاء هذه الحجة ناظرة إلى قول إبراهيم في المحاجة التي هي من خصائص هذه السورة الكريمة ﴿ **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام:٧٩) فكان ذلك ردا لآخرها على أولها ، إنها خيوط في السورة ، وجمعها يؤيد نظر البقاعي في القرآن الكريم ، وكان النظر إلى التركيب النحوي في مطلع السورة الكريمة ، هو مدخلنا لتبين نظام بناء المعاني في هذه السورة ، وبيان الجملة الأصلية وتوابعها ، يكشف المعاني الأصلية ، وثواني المعاني في السورة الواحدة .

والحمد لله على ما ساق وأعطى .

* * *

المبحث الثاني

سورة الإسراء

الآية الأولى من هذه السورة الكريمة التي تفردت بالتصريح بمعجزة الإسراء لا تشركها آية أخرى ، وهي التي أجملت مقصود السورة فيما يقول البقاعي : «ومقصودها الإقبال على الله وحده ، وخلع كل ما سواه ، لأنه ـ وحده ـ المالك لتفاصيل الأمور ، وتفضيل بعض الخلق على بعض ، وذلك هو العمل بالتقوى التي أدناها خلع الأنداد ، واعتقاد التوحيد . . . وكل أسمائها واضح الدلالة على هذا .

أما (سبحان) الذي هو علم للتنزيه ، فمن أظهر ما يكون فيه ، لأن من كان على غاية النزاهة عن كل نقص ، كان جديرا بأن لا تعبدوا إلا إياه ، وأن يعرض كل مخلوق عن كل ما سواه ، لكونه متصفا بما ذكر .

وأما (الإسراء) : فمن عرف أموره كلها في السرى بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم العروج . . . علم أن الفاعل لذلك متصف بكل ما ذكر ، فأقبل بكليته ، وانقطع دائما إليه ، وكذا تسميتها بالأقصى ، فإنه مشير إلى قصة الإسراء .

وأما (بنو إسرائيل) : فمن أحاط ـ أيضا ـ بتفاصيل أمرهم في سيرهم إلى الأرض المقدسة ، الذي هو كالإسراء ، وإيتائهم الكتاب ، وما ذكر مع ذلك من شأنهم في هذه السورة ، الذي هو معروف بالفرق بين الإسراءين والفرق بين الإيتاءين عرف ذلك»[1] .

---

(١) مصاعد النظر ٢/٢٣٠، ٢٣١ .

وبيانه ـ رحمه الله ـ مدل على جذر السورة الذي هو مقصودها ، وكان تعدد التسمية عنده بيانا وكشفا عن تشاجر فروع هذا الجذر ومراتب هذا التشاجر في السورة وتواصل أغصانها ، وتمايل أفنانها ، لأن السورة ـ عنده ـ كالشجرة النضيرة في هذا التواصل والتشابك ، ولها جذر ينتظم كل فروعها وأغصانها وأوراقها يلقي به دائما في مطلع السورة الكريمة ـ فيما استقر لدينا حتى هذه السورة ـ وتتقارب سور الذكر الحكيم تقاربا بينا ، لأن كل هذه الأشجار توقد من شجرة مباركة من نور السموات والأرض العلى العلام . وذلك النور الذي نحاول به استشكاف علائق البيان في السورة الكريمة ـ وهي علائق دقيقة ورائعة ـ ذلك هو قوله تعالى : ﴿ **سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** ﴾ (الإسراء:١). والمقصود الذي قرره البقاعي تدل عليه تراكيب الآية كما يظهر من كلام الأئمة .

فقوله : ﴿ **سُبْحَٰنَ** ﴾ إما أن يكون علما للتسبيح[١] ، أو اسما موضوعا موضع المصدر[٢] ، أو مصدرا سماعيا ثم صار علما على التنزيه[٣] . « وقد روى طلحة بن عبيد الله الفياض ـ أحد العشرة ـ أنه قال للنبي ﷺ : ما معنى سبحان الله؟ فقال : تنزيه الله من كل سوء »[٤] .

وتصدير السورة بهذا اللفظ كان إشارة للمح بعض العلاقات ، فهو إما أن

---

(١) الكشاف ٤٣٦/٢، والبيضاوى ٥٧٥/١، وأبو السعود ٥٤١/٥ .
(٢) جامع البيان ٢/١٥، والجامع لأحكام القرآن ٣٩٣١/٥ .
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٣٤/٢ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣٩٣٢/٥ .

يكون دالا على التنزيه عن العجز عما ذكر بعده[١] ، عند من قصر دلالته على التنزيه ، وإما أن يكون مشيرا إلى أن الوارد بعده أمر خارق للعادة عند من قصر دلالته على التعجب البليغ[٢] ، والمقصودان مرادان كما قال الشيخ الجمل[٣] لأن اللفظ بذاته يدل على التنزيه ، وإلقاءه من دون سبق كلام يمحض مقصوده للتنزيه مؤذن «بأن خبرا عجيبا يستقبله السامعون ، دالا على عظيم القدرة من المتكلم ، ورفيع منزلة المتحدث عنه»[٤] وهو مشير أيضا إلى هذه الرحلة من حيث اشتقاقه من السبح الذي هو الذهاب والإبعاد في الأرض[٥] .

والذي علق بهذا اللفظ كل هذه الاحتمالات هو تصديره سياق السورة ، لذا تعددت جهات نظرهم في السورة وهي ـ فيما أرى ـ متممات لبعضهن ، فلكل دلالة خيط في السورة الكريمة يسري فيها كمسرى النفس في النفس ، بل لمحوا أكثر من هذا فقد ذكروا أن التسبيح يذكر بمعنى الصلاة ، واستدلوا لذلك بقوله : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ (الصافات:١٤٣)[٦]، ولا أرتاب في أنهم كانوا يقصدون إلى الصلاة التي تسرى فيها روح الإقبال على الله وحده ، وخلع كل ما سواه ، وذلك منهم كشف عن اختصاص السورة بصلاة الفجر ، وقرآن الفجر وبيان فضله ، وتفصيل آية السجود التي تترجم بخير بيان عن روح العبودية والإقبال﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾(١٠٧)،

(١) البيضاوي ٥٧٥/١ .
(٢) حاشية الشيخ زاده على البيضاوي ٢٠٨/٢ .
(٣) الفتوحات الإلهية ٦٠٨/٢ .
(٤) التحرير والتنوير ٩٠/١٥ .
(٥) تفسير أبي السعود ٥٤١/٥، ٥٤٢ .
(٦) يراجع : جامع البيان ٢/١٥، ومفاتيح الغيب ٦/١٠ .

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١٠٩) فهو نظر الربانيين ، وأهل البصيرة .

والذي يثلج صدرك ويغريك بتقبل هذا الملمح أن هذه الكلمة ﴿ سُبْحَانَ ﴾ وقعت في سياق السورة ثلاث مرات[١] غير هذه المرة ، ولم يذكروا عند أي منها أنها تذكر بالصلاة ولم يقع هذا اللفظ بهذه الكثرة ﴿ سُبْحَانَ ﴾ في غير هذه السورة الكريمة وهي علاقة أخرى .

وقد أضيف هذا اللفظ البديع إلى الاسم الموصول « للتنبه على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه »[٢] وللإشعار بعلية ما في حيز الصلة للمضاف »[٣] ، « لا سيما مع تصدير الجملة بالتسبيح الذي هو مختص بالله »[٤] والذي يقتضي الإقبال على الله وحده ، وترجمت الصلة عن هيئة المقبل على الله وثمرة هذا الإقبال ، لذلك جاء هذا الوصف للنبي ﷺ (عبده) في مقام يراد منه تعظيمه ، وقد عللوا لهذا الوصف بأن الله سماه عبدا في أرفع مقاماته وأجلها ، وهو هذا وقوله : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ (النجم:١٠) وذلك لكي لا تغلط فيه أمته كغلط أمة المسيح ، وقيل لكي لا يتطرق إليه التعجب والكبر[٥] ، ولكل تعليل خيطه البياني في السورة ، كما سنحاول بيانه .

وإنما كان هذا الوصف للنبي ﷺ ولغيره أرفع الأوصاف قدرا ، لأنه وصف للمقبل على الله وحده أرفع مقامات التوحيد ، لذا قال العلماء في

---

(١) الآيات : الإسراء ٤٣، ٩٣، ١٠٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٠/١٥ .

(٣) أبو السعود ٤٢/٥، وروح المعاني ٤/١٥، ٥ .

(٤) الصاوي على الجلالين ٣٣٤/٢ .

(٥) ينظر : مسائل الرازي وأجوبتها ص٢٥٤ .

هذا الموضع : «لو كان للنبي ﷺ اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة العلية»[1] فالتركيب مشعر بالتفضيل من المطلع ، لذا تجد خيط بيانه ظاهرا في السورة الكريمة في إطار مقام المطلع الذي يجمل مقصود السورة .

وخيط آخر يستنبط من قوله : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ وهو إذا ما قورن بقولنا : (سرى بعبده) ولد لطيفة تناسب هذا المقام «وهي التلويح إلى أن الله تعالى كان مع رسول الله ﷺ في إسرائه بعنايته وتوفيقه»[2] .

وتلويح إلى ما اختصت به السورة الكريمة من بيان خصائص النبي ﷺ من المقام المحمود وغيره . . .

ذلك ما أبصره ابن الزبير وتابعه البقاعي فيما ورد «ولا أعلم في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التي فضل بها كافة الأنبياء مثل ما تضمنت هذه»[3] وذلك لأنه اتخذ الله وكيله كما سنحاول تتبعه في السورة الكريمة .

وقد انتشر وصف العبودية في السورة انتشارا ليس في سور الذكر الحكيم[4] قاطبة جاءت في معظم مواضعها متقابلة مع عكسها ، كاشفة عن بعض ثمار هذا الوصف في بيان يتعالى فيه صدى هذا المقصود المجمل في المطلع .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٩٣٢/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١١/١٥ .

(٣) البرهان في تناسب سور القرآن ص١٢، ونظم الدرر ٢٩٨/١١ .

(٤) الآيات : ١، ٣، ٥، ١٧، ٣٠، ٥٣، ٦٥، ٦٦ .

وقد ذكروا أن التنكير في (ليلا) للتقليل[1]، واستدلوا لذلك بقراءة عبد الله وحذيفة (من الليل) وهو متناسب مع دلالة سبحان على التعجب أو لدفع توهم أن الإسراء كان في ليال ـ وهو بعيد ـ أو أنه يدل على التعظيم مناسبة للسباق والسياق[2]، وهو متناسب مع مقام تفضيل النبي ﷺ والذي يظهر أن دلالة التنكير على التقليل أقوى في مقام التعظيم المستفاد بقرائن أخرى من إضافة علم التنزيه إلى الصلة ، ووقوع الحدث في حيزها ، فالتعليل يدل على تعظيم ما في حيز الصلة (أسرى) ، وقد استعظم الكفار وقوعه في وقت بسيط وذكر مبدأ الإسراء ونهايته . كان إشارة إلى ما في السورة من التشريع الاجتماعي من قوله : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ** . . .﴾ عند العلامة ابن عاشور[3] . وهو ملمح جيد لا يدفعه ورود التشريع الاجتماعي في سورة أخرى ، لأن بناءه البياني هاهنا جاء ناظرا إلى المطلع ، ومناديا على وجه ورودها كما سنحاول الإشارة إليه في استبصار بعض خيوط بيان السورة .

وكما أن قوله : ﴿ **أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ** ﴾ يدل على تفضيل النبي ﷺ فذكر مبدأ الإسراء ونهايته . (المسجد الحرام ـ المسجد الأقصى) يدل قطعا على إدارة معانى السورة الكريمة في إطار بيان التفاوت بين الشريعتين والكتابين في حدود الإقبال على الله وحده ، والتشريف بنسبة وجود هذا الإقبال كما ألمع إليه المطلع ، لذلك ذكر القرآن الكريم في السورة إحدى عشرة مرة[4] بما لا تكاد تتقارب معها سورة أخرى .

---

(١) الكشاف ٤٣٦/٢، وأنوار التنزيل ٥٧٥/١، والشيخ زاده ٢٠٨/٢، والبحر المحيط ٥/٦.

(٢) روح المعاني ٤/١٥، ٥، والتحرير والتنوير ١١/١٥ .

(٣) يراجع : التحرير والتنوير ١٥/١٥ .

(٤) الآيات : ٩، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٦٠، ٧٨، ٨٢، ٨٨، ٨٩، ١٠٦ .

ببيان بديع لا نملك معه إلا أن نخر لله سجدا ، فهو نور الله العلي العلام وكلامه القديم يتعاظم إشعاعه في مطلع السورة الكريمة يلحظه الأئمة ببيان تتلمسه تلمسا حثيثا في مثل ما أبصره الشهاب الخفاجي في توجيه العطف في قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ . . . ﴾ (٢) في أنها عطفت « بجامع أن موسى أعطى التوراة بمسيره إلى الطور ، وهو بمنزلة معراجه ، لأنه منح ثمة التكليم وشرف باسم الكليم ، وطلب الرؤية . مدمجا فيه تفاوت ما بين الكتابين ، ومن أنزلا عليه ، وإن شئت فوازن بين ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ و ﴿ مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ . . . ﴾ وبين ﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ و ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ »[1] .

وعد الألوسى هذه الآيات استطرادا تمهيدا لذكر القرآن ، لذا يقول عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (الإسراء:٩) : « متعلق بصدر السورة كما مرت الإشارة إليه ، وفي الإشارة بهذا تعظيم لما جاء به النبي ﷺ »[2] والآية عند ابن عاشور « استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الغرض الأهم من هذه السورة وهو تأييد النبي ﷺ بالآيات والمعجزات ، وإيتاؤه الآيات التي أعظمها آية القرآن »[3] وليس ما بين الآيتين استطراد إنما هو جار في إطار بين التفاوت كما نور المطلع ، لكنه جاء على خلاف نظام المطلع حين ذكر في المطلع الفاضل ثم المفضول اقتضاء قص الحدث وإجرائه ، وجاء هذا في الموازنة بذكر المفضول لسبق وجوده، ثم ذكر الفاضل فقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى . . . ﴾ (٢) ، بداية تفضيل مقصود على ما استبصرناه في

(١) عناية القاضي وكفاية الراضي ٨/٦ .
(٢) يراجع روح المعاني ١٤/١٥، ٢٢ .
(٣) التحرير والتنوير ٣٩/١٥ .

كلام الأئمة ، فالآيات من قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَا ﴾ (الإسراء:٢) إلى قوله : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (الإسراء:٩) تفصيل لقصة بني إسرائيل إزاء المسجد الأقصى في إطار ما قرره المطلع جاءت مقابلة لما قرره المطلع من الإقبال على الله وحده من أول أمر ، وجاء كل ما في السورة الكريمة من آيات ـ على ورود كثير منها في سورة الذكر الحكيم ـ متقابلا مع هذه الآيات ليتلاقى مع ما قرره المطلع وجاءت آيات في قصتهم آخر السورة مستغرقة أربع آيات من قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ ﴾ (الإسراء:١٠١) إلى قوله : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ (الإسراء:١٠٥) ، وذكر بين هذين الموضعين من أحوال الكفار ما يشاكل حال اليهود بمفارقات نادرة وعجيبة وتشابك مستحكم لا نستطيع معه فصل عنصر عن آخر في أداء المقصود ، فبيان شعراء الجاهليين مبدوء ـ غالبا ـ بوصف الطلل ثم ذكر الناقة . . . أو . . . أو . . . إلى آخره مع سريان روح التركيب في القصيدة الواحدة ، فيستبين الناظر مواقع عناصر مقصود القصيدة ، أما في كلام الله فمحال أن نحدد مواقع بدايات عناصر المقصود وكل ما نستطيع الوقوف عليه هو استبصار خيوط هذه العناصر وامتداداتها في السورة من المطلع إلى الختام حينا ، ومن الختام إلى المطلع حينا آخر .

فالتحذير الأول لبني إسرائيل هو قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ (الإسراء:٢) ولا تجد كهذه الآية في قصة بنى إسرائيل في الذكر الحكيم ، وهي من نور المطلع الذي يحمل معنى الإقبال على الله وحده ، وقد ألقى القرآن بهذه الآية : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (الإسراء:٣) بهذا التعليل الذي لم يقع في غير هذا الموقع ، بهذا التعانق البديع الذي يقتضيه قوله : ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ وهو

من نور العبودية في قوله : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ وقد ذكروا أن الآية « استئناف لبيان علة ما ذكر قبله ، وحث الذرية على الاقتداء به »[1] .

مع مراعاة ما في تركيب الآية بهذا الإيجاز البديع الذي يبين عن وجه الإقبال على الله وحده ، وثمرته (النجاة) من أجل (العبودية) ، لذا لم يذكر هنا إبراهيم عليه السلام .

ولحظ للمناسبة أيضا بين قوله : ﴿ حَمَلْنَا ﴾ وقوله : ﴿ أَسْرَىٰ ﴾ وما يطويه مفهوم تركيب الآية من التهديد ، عند الإخلال بوصف العبودية ، كما كشفه قوله بعد : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (١٧) ولما كان هذا العنصر أقوى عناصر السورة اتصالا بالغرض المجمل في المطلع ، كان أكثر انتشارا تجد نور هذا العنصر في قوله : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ (الإسراء:٢٢) وقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء:٢٣) وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ (الإسراء:٣٩) .

مع ملحظ مهم هو أن آيتى (لا تجعل) وقع بينهما التشريع الاجتماعى لخصوصية سنحاول كشفها ـ وتجد نور هذا العنصر في قوله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:٤٢) وقوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ (الإسراء:٥٦) ويعلل في هذا النور اختصاص قصة إبليس بقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (الإسراء:٦٥) والذي يتعاظم إشعاع المطلع فيه هنا إذا ذكرنا قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (الحجر:٤٢) .

---

(١) حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي ٢/٢١٠ .

كما تزداد بنور هذا العنصر بصرا بقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلاً ﴾ (الإسراء:٦٨) باستحضار التناغي بين ﴿ عَبۡدًا شَكُورًا ﴾ (الإسراء:٣) و ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ (الإسراء:٢) وكأن هذه العبارات اقتضت ذكر الآيات من قوله ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي ﴾ (الإسراء:٦٦ ، ٦٧) ويتعاظم العجب عندك إذا ما أبصرت بعد قوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ (الإسراء:٦٩) ، وما في تتابع المجرورات هذه من بدع البلاغة والتي هي من عيوب الفصاحة في الكلام على ما عرفت في بيان البشر ، ثم تجد هذا النور في مخاطبة النبي ﷺ الموصوف في المطلع بالعبودية عند فرض اختلال هذه الصفة ، وهي مباشرة للمطلع تجد رابطا مباشراً للآيات من قوله : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ ﴾ (الإسراء:٧٣ ، ٧٤) في قوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء:٧٥) وقد كانت إرادة الفتنة منحصرة في إرادتهم ترك بعض ما أوحي إليه ﷺ ففصلت الآيات وعينها على المطلع إلى أن جاء قوله : ﴿ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلاً ﴾ (الإسراء:٨٦) . بهذا النمط البديع الناظر كله إلى قوله : ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ (الإسراء:٢) الناظر إلى قوله : ﴿ بِعَبۡدِهِۦ ﴾ هذا نور الله سبحانه ثم تتضام كل هذه المعاني بعد توزع خيوطها في قوله : ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ (الإسراء:١١١) في ختام السورة ، مع مراعاة اختصاص السورة بهذا الخيط البديع الذي تتنادى فيه التراكيب بتقاربها وتشاربها من بحر واحد وحقل واحد ، هو مطلع السورة الكريمة الذي يجعل مقصودها بما يضيق المقام ببيانه .

وخيط آخر أحاول استبصاره في قوله : ﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ ﴾ (الإسراء:٤) وقد أبانت السورة عن هذا الإفساد خير بيان

فقد كان هذا الإفساد مقابلا لما قرره المطلع من الإقبال على الله وحده ، والظاهر أنه كان إفسادا متعلقا بمجتمعاتهم ، فأول إفساد هو اتخاذهم من دون الله وكيلا ، ثم العزوف عما قرره شرعهم ، فسبب إخراجهم أنه لم يكونوا عبادا ، تلمح هذا في هذه المقابلة ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ وما في دقة هذا التركيب يجعلنا نقرر أن الآية (٤) كأنها تترجم عن قول مؤداه فلم تكونوا عبادا لنا فنبعث عليكم عبادا لنا وهذا سر وقوع آيات التشريع بين قوليه سبحانه ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ .

فيبدو أنه كان من إفسادهم عقوق الوالدين ، الذي أوشك الذكر الحكيم أن يجعل طاعتهما عبودية بهذه الاستعارة التمثيلية التي هي من خصائص السورة الكريمة على ورود البر بالوالدين في مواضع أخرى من الذكر الحكيم ، ولولا قوله : ﴿ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ لأوشكت طاعتهما أن تكون عبودية ، وتلك مقتضيات المطلع في الإقبال على الله وحده ـ أي وعلى تشريعاته وحدها ـ ويبدو أنه كان من إفسادهم أكل حقوق الأقرباء والمساكين ، والتبذير ، والبخل وقتل الأولاد ، وشيوع الزنا ، وتعطيل القصاص ، وأكل مال اليتيم ونقض العهد ، وبخس الكيل والميزان ، وتتبع العورات والعجب والكبر ، وكل ما يقطع قوى المجتمع ويهتك أواصره فتكون الذلة ، وأول هذه الآفات وآخرها هو مخالفة قوله سبحانه : ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ (الإسراء:٢) .

والذي يغريك بتقبل هذا الملمح أنه كان يكفى في إبلاغ هذه التشريعات أن يقال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ـ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ـ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ـ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ـ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ـ وَلَا تَقْرَبُواْ

﴿ ٱلزِّنَىٰٓ – وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ– وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ – وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ – وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ – وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ– وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ .

كان هذا القدر كافيا في الأمر بهذه التشريعات إن لم نجد في السياق قوله : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء:٩) وإن لم نجد قبله مقابلة الإفساد بعباد له سبحانه أولى بأس شديد ، وأسلوب التفضيل في آية القرآن هذه لم يقع في سورة أخرى ، لذلك عطف على كل تشريع اجتماعي ، وذيل كل تشريع بما يربطه بمقصود السورة ، وأظهر بيان على ما نقول مثلا قوله : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء:٢٩) وقوله : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ (الإسراء:٣٣) وما في الجملة الأولى من الذلة ، وما في الرضا بالقصاص من التأييد وحقن الدماء ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (الإسراء:٣٥) إلى آخره فكأن آيات التشريع هذه مفهوم لمنطوق قوله : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ... ﴾.

وتجد نور قوله : ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ قى قوله : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ (الإسراء:١٦) وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ (الإسراء:٣٧) وتجده في قوله : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ (الإسراء:٥١) وقد أعقبه بقوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (الإسراء:٥٢) أى تستجيبون حامدين له ، ونجد صداه في إخباره عن الكافرين ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٦٠) وفي قول إبليس : ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ (الإسراء:٦٢) الذي لم يرد في غير هذا الموضع ، لأنك لا تجد في السياقات الأخرى كقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ ﴾ (الإسراء:٧٠).

مع أن الإمداد تفضيل يستوجب الحمد ، والتفضيل من العلى العلام ، كما أنبأ المطلع ونور ، وأشاع ذلك في السياق من أول قوله : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ (الإسراء:٦) وتجد نوره في قوله : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ (الإسراء:٢٠) وقوله : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (الإسراء:٢١) وفي تفضيل النبيين ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (الإسراء:٥٥) قال جار الله ـ ناظرا إلى المطلع ـ «قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ دلالة على وجه تفضيله ، وهو أنه خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم ، لأن ذلك مكتوب في زبور داود ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥) .

وهذا التركيب مع مجيئه في سورة النساء إلا أن له دلالة خاصة أشاعها فيه نور المطلع ، لأنه جاء في النساء في آخر قوله : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ (النساء:١٦٣) لكنه جاء في الإسراء تعريضا «للمشركين بأن المسلمين سيرثون أرضهم وينتصرون عليهم ، لأن ذلك مكتوب في الزبور»[1].

وسياق الإخلال بنعمة التفضيل المتناغي مع مقام الإقبال على الله وحده اقتضى اختصاص السورة بقوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ (الإسراء:٩٧) ولا كقوله : ﴿ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا . . . ﴾ في الذكر الحكيم لأنه ـ سبحانه ـ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ (الإسراء:١١١) كما ترجم ختام السورة .

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/١٥ .

ومن بدائع هذه السورة اختصاص جهنم بوصف ﴿ حَصِيرًا ﴾ بيانا لعاقبة الخارجين على ما قرره المطلع ، وقد تكاثرت أقوال المفسرين في المراد بحصيرا ورجحتُ في دراسة أخرى[1] أن المراد بالحصير السجن ، ورجحتُ أنه تشبيه بليغ بقرينة الحديث : إن في جهنم سجنا يقال له : بولس . . .) ، واستبعدت أن يكون المراد بالحصير (الحصير المرمول) لعدم استقامته إلا على وجه التهكم ، وذلك مما يخلو منه السياق ، لأن السياق في إذلال الخارجين على مقصود هذه السورة وذلك مع تقابله مع المطلع له إشعاعاته في السياق تجد فوره في قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (الإسراء:١٨) وفي قوله : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ (الإسراء:٢٢) ، وفي قوله : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء:٢٩) وفي قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (الإسراء:٣٩) .

وتجد هذا الجزء مقابلا لعمل كفار مكة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (الإسراء:٤١) وقوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ (الإسراء:٤٦) وربما تجد نوره ظاهرا فيما اختصت به السورة من قوله في اليهود ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ (الإسراء:١٠٤) .

---

(١) يراجع : أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٤١٢ وما بعدها ، الدكتور إبراهيم الهدهد ـ مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ ، وقد راجعت في هذا الموضع الكشاف ٤٣٩/٢ والبيضاوي ٥٧٩/١، والفتوحات ٦١٧/٢، وابن كثير ٢٦/٣، والشهاب على البيضاوي ١٣/٦، والتحرير والتنوير ٣٩/١٥، والترغيب والترهيب ١٨/٤، واللسان ١٧٩/١، والقاموس ٢٠٩/٢، وأساس البلاغة ، ص٨٥، والمعجم الوسيط ١٧٩/١ .

وهي مرحلة تسبق دخول جهنم الموصوفة بقوله : ﴿ حَصِيرًا ﴾ وقوله ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (الإسراء:٩٨) ينادى مباشرة على قوله : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (الإسراء:٤٩) وما فيه من نحو قوله : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ . . . ﴾ الذي يتواصل مع قوله : ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٤) المتقابل مع مقام العبودية ، وهي تتضام جميعا في قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ .

وسياق العلو والإمداد بالأموال والنفير المقتضيين للإقبال على الله وحده ، ثم إخلاف اليهود المقصود منهما اقتضى وقوع الفرق فيما حكاه الشيخ الجمل في قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (الإسراء:٣١) بتنظيره بقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام:١٥١) لأن ما في الإسراء «خطاب للموسرين بدليل قوله : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ أي خشية وقوع الفقر بكم ولذلك أخر ذكرهم ، وقدم ذكر الأولاد في قوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ وتقدم في سورة الأنعام نهي المعسرين بقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ﴾ أي من أجل فقر واقع بكم ، ولذلك قدم ذكرهم في قوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وفي الكرخي حاصله : «أن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله وإن كان لأجل الغيرة على البنات ، فهو سعي في تخريب العالم ، فالأول ضد التعظيم لأمر الله ، والثاني ضد الشفقة على خلق الله وكلاهما مذموم»[1].

(١) الفتوحات الإلهية ٢/٦٢٣، ٦٢٤ .

وهو تفسير ناظر إلى قوله : ﴿ سُبْحَانَ . . . ﴾ الذي يترجم الإقبال على الله وحده ، وإلى ما في السياق من قوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم ﴾ (الإسراء:٤٠) .

كما تجد أن آيات الكافرين من قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ (الإسراء:٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣) هي من نور قوله ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الإسراء:٦) ، كما تجد نوره في قوله : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّيَ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ (الإسراء:١٠٠).

وتجد قوله في قصة موسى ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ (الإسراء:١٠٣) مقابلا لقول كفار مكة ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ (الإسراء:٧٦) وقد مهد لعرض هذه الحلقة من قصة موسى بقوله : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ (الإسراء:٧٧) وكأن قول الفريقين وفعلهما من أثر ما اختصت به السورة من قوله : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ (الإسراء:٦٤) .

وتجد أوصاف قوله : ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾ في آخر السورة بما لا نظير له في الذكر الحكيم من قوله : ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (الإسراء:١٠٧) ويتأيد ذلك عندك بقوله في أول السورة ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ (الإسراء:٥) بمقارنته بقول العباد بما وقع في فروق التركيب من قولهم ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ (الإسراء:١٠٨).

وكان للأئمة أن يقولوا : «وما ألطف المناسبة بين ابتداء هذه السورة وهذا الختام ، وليس ذلك بدعا في كلام اللطيف العلام»[1].

---

(١) روح المعاني ١٩٦/٥ .

وقد اختصت السورة بقوله : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ كاختصاصها بالتصدير بقوله : ﴿ سُبْحَنَ . . .﴾ وذلك ما ألمح إليه أبو حيان في قوله في آخر السورة «أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال ، وأكد بالمصدر تحقيقا له وإبلاغا في معناه ، وابتدئت هذه السورة بتنزيه الله تعالى واختتمت به»[1].

وتواصل آيات السورة بدع في البلاغة شأن سور الذكر قاطبة .

فسبحان العلي العلام .

* * *

(١) البحر المحيط ٩١/٦ .

المبحث الثالث

سورة الكهف

كان اسم السورة ، وقيد الكتاب ﴿ قَيِّمًا ﴾ الذي تفرد به هذا المطلع مناطى استبصار مقصود السورة عند البقاعي فيما قال ـ رحمه الله ـ : «ومقصودها وصف الكتاب بأنه قيم ، لكونه زاجرا عن الشريك ـ الذي هو خلاف ما قام عليه الدليل في ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ ، من أنه لا وكيل دونه ، ولا إله إلا هو ـ وقاصا بالحق أخبار قوم قد فضلوا في أزمانهم ، وفق ما وقع الخبر به في ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ من أنه يفضل من يشاء ، ويفعل ما يشاء ، وأدل ما فيها على هذا المقصد قصة أهل الكهف لأن خبرهم أخفى ما فيها من القصص ، مع أن سبب فراقهم لقومهم الشرك ، وكان أمرهم موجبا بعد طول رفادهم للوحدانية وإبطال الشرك»[1] .

وهو مما نفسر به كثيرا من خصائص السورة ، مع ضميمة ما ذكره من تعليل افتتاح السورة بـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ مما أفضى به إلى بيان وجه اختصاص السورة بقصة الخضر وقصة ذي القرنين .

وهو ما قاله ـ رحمه الله ـ : بعد تبيينه علة افتتاح خمس من سور الذكر الحكيم بالحمد لله ، وأن أولها سورة الفاتحة لاشتمالها على الإيجادين والإبقاءين وأن الأنعام اختصت بالإيجاد الأول لجميع العالمين ، وذلك

(١) مصاعد النظر ٢/٢٤٣، ٢٤٤ .

مشار إليه في الفاتحة بقوله : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : «أما الكهف فقد اختصت بالإبقاء الأول ، وافتتحت حديثها باستحقاقه ـ تعالى ـ الحمد لذاته ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وعللته أيضا بإنزاله الكتاب واستفادته الذي هو أس استنفادة البقاء الأول في دار الفناء (الأرض) وبقاء نظام العالم ، والنوع الإنساني إنما يكون بالنبي والكتاب وذكر فيها قصة الخضر الذي انتظم ، واستقام به كثير من أحوال أهل السفينة والغلامين اليتيمين والرجلين الصالحين ، وذكر فيها قصة ذي القرنين الذي استقام بصنيعه أهل الأرض فحفظهم من فساد يأجوج ومأجوج ، فهذه القصص التي لم ترد في غير هذه السورة تؤكد الإشارة إلى أسباب البقاء الأول فكان الحمد فيها على نعمة الإبقاء الأول»[1] .

ومعنى ﴿ قَيِّمًا ﴾ على ما ذكر البقاعي «مقوما لأمور معاشهم ومعادهم»[2].

وهو الوجه الذي ارتضاه الرازي ، ودفع به قول ابن عباس في أن المعنى «معتدلا مستقيما ، وقيل : عنى به أنه قيم على سائر الكتب يصدقها ويحفظها»[3] ، لأن ارتضاءه يشكل به موقع قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ إذ إن مفهوم الجملة أنه جعله مستقيما معتدلا ، مما حملهم على استخراج وجه لهذا التكرير ، وتكلف ناصب لقوله : ﴿ قَيِّمًا ﴾ تبعا لهذا المعنى[4] ، مع أن المعنى هو الذي يتحكم في القاعدة من غير عكس .

---

(١) نظم الدرر ٣/١٢ بتصرف .

(٢) المفردات (ق ى م)، ص٤١٧ .

(٣) جامع البيان ١٢٦/١٥ .

(٤) فذكروا أنه منصوب بمضمر ، لأن انتصابه على الحال يترتب عليه الفصل بين الحال وصاحبه بأجنبي ، وتكلفوا المحامل لنصبه على الحال على اعتبار أن==

وقد ذكر جار الله أن الوجه في تعاقب الوصفين ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ ﴿ قَيِّمًا ﴾ «التأكيد فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولا يخل من أدنى عوج عند السبر والتصفح»[1] والذي أبصره الرازي وأبو السعود والبيضاوي[2] أن الوصف الأول إشارة إلى كونه كاملا في ذاته ، والوصف الثاني إشارة إلى كونه مكملا لغيره ، فهو وصف له بالتكميل بعد وصفه بالكمال ، وعليه استظهر الرازي فساد ما ذكروه من التقديم والتأخير في الوصفين .

بل رجح أبو السعود المعنى الذي ارتضاه الرازي بالنظر إلى ما بعد آية المطلع فيما يقول : «قيما بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد على ما ينبئ عنه ما بعده من الإنذار والتبشير»[3] . وهو ما نبهنا إلى عنصري البيان عن مقصود السورة الذي أجمله مطلعها ، إذ إنه علق هذا المقصود الذي أجمله المطلع بلام الغرض التي أدرجت في ثناياها عدة جمل أبانت ـ بهذه العلاقة الصناعية الظاهرة ـ عن العناصر التي تفرعت عن هذا المقصود ، فهي سورة الزجر والتقويم ، وكان لهذا المقصود صداه المتعالي داخل

== الواو في (ولم يجعل) واو الحال لا واو العطف ، أوعد قوله : (ولم يجعل) اعتراضا ، وعليه جاز الفصل ، أو هما حالان متواليان أولاهما مؤسسة والثانية مؤكدة أو أن الوجه على التقديم والتأخير والتقدير (قيما ولم يجعل عوجا) أو أن (قيما) بدل من (ولم يجعل). يراجع : الكشاف ٤٧١/٢، وجامع البيان ١٢٦/١٥، ومفاتيح الغيب ٢٣٣/١٠، والبحر المحيط ٩٥/٦، والبيضاوي ٤/٢ .

(١) الكشاف ٤٧١/٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٣٣/١٠ وما بعدها ، وإرشاد العقل السليم ٦٧٣/٥ ، والبيضاوي ٣/٢، والتحرير والتنوير ٢٤٨/١٥ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٦٧٣/٥ .

السورة ، وتعالى نداء التراكيب على علاقتها بمطلع السورة الذي هو نورها كما سيظهر ـ إن شاء الله ـ .

عناصر البيان عن هذا المقصود ـ الذي يجمله في قوله تعالى : ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا** ﴾ ـ تبدأ من قوله : ﴿ **لِّيُنذِرَ** ﴾ في الآية الثانية إلى قوله : ﴿ **وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ في الآية (٨) ويضيق المقام باستظهار إشعاعات هذه الآيات ، لأن حديثنا في حدود إثبات دعوى إجمال المطلع لمقصود السورة ، وبيان أن الأول ناصيتها والثاني جسدها وروحها ، ومحاولة استبصار هذه الدعوى في كلام الأعيان من الأئمة ، فلو كان النظم الحمد لله الذي أوحى إلى عبده . . . أو آتى عبده ، أو جعل الكتاب . . . إلخ أتراه يتناسب وهذا القيد ﴿ **قَيِّمًا** ﴾ كما ارتضى معناه الأئمة؟ لا ريب أن التعبير المعجز بقوله ﴿ **أَنزَلَ** ﴾ راعى هذا التناسب فقد أضفى على الكتاب صفة العلو وهي أهم أصول صفات الزاجر ولو جيء بما افترضناه ـ محاولة لاستظهار نور الله في كلامه ـ لسقطت هذه الدلالة وانتفت قيمة الزجر الذي استمد قيمته من جهة إنزاله ، لا من جهة مبلغه لذا لم يصلح هنا أن يقول غير قوله : ﴿ **عَلَىٰ عَبْدِهِ** ﴾ في هذا المقام ، مع استبصارنا لما في هذه الإضافة من التشريف ، وما في تقديم الجار والمجرور من إثبات صدقه لأن حديثه وحي ، بل إن هذا المقصود اقتضى تقديم الإنذار على التبشير .

كما أبصر الألوسي فيما يقول : «وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه»[1] . وهو الذي اقتضى حذف

(١) روح المعاني ٢٠٣/١٥ .

المفعول الأول لقوله : ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ كأنه «قد جعل المنذر به هو الغرض المسوق إليه ، فوجب الاقتصار عليه ، والدلالة عليه تكرير الإنذار»[1].

وهو الذي اقتضى وصف البأس الذي هو بمعنى العذاب بالشدة ، ولم يقع في غير هذه السورة ، والذين ارتضوا أن يكون ﴿ قَيِّمًا ﴾ بمعنى مستقيما ، يذكرون أن البأس وصف بالشديد للتأكيد قالوا : «فإن الشديد هو البأس ، وكرر للتأكيد»[2] وهذا من أثر تركيب المطلع .

يقول الشهاب ـ بعد بيان إشارة البيضاوي إلى أن قرينة حذف المفعول مقابلتهم بالمؤمنين قال : «وأورد عليه أن مقابلته بالمؤمنين الصالحين ، يقتضي شموله للعصاة لكن كون المراد من البأس الشديد العذاب الذي بلغ العناية يقتضي تخصيصه بالكافرين» وتبعه بعض المتأخرين ، لكنه قال : «لا اقتضاء لما ذكر للتخصيص إذ كل عذاب الله شديد ، وتعقبه بعضهم بأن المراد بالبأس الشديد العذاب البالغ في الغاية وهو مخصوص بالكفار وهو مصادرة»[3] .

والذي تجمل الإشارة إليه أن الذي قال بالتخصيص ناظر إلى مقصود السورة المجمل في مطلعها ، والذي يغري يتقبل هذا القول أنه وصف أجر المؤمنين في مقابلتهم بأوصاف لم تقع ـ في تتابعها ـ في غير هذه السورة ، فلن تجد كقوله : ﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ في وصف أجر المؤمنين ، وستدل تراكيب السورة على هذا التقابل البين .

---

(١) الكشاف ٢/٤٧١ .

(٢) حاشية الشيخ زاده على البيضاوي ٢/٢٤٧ .

(٣) عناية القاضي وكفاية الراضي ٦/٧٣ .

وقوله : ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ اقتضاهم الاختلاف في وقت العذاب أفي الدنيا أم في الآخرة؟ فإن كان في الدنيا فاستعمال الظرف مجازي ، وإن كان في الآخرة فاستعماله حقيقي ، واستظهر ابن عاشور أن يكون المراد به شدة الحال في الدنيا وهو في هذا التفسير ناظر إلى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الكهف:٧ ، ٨) ، ومثل صاحب الجنتين ، وجمهور المفسرين على غير هذا الوجه ، وكل ناظر إلى معاني السورة ، وعليه فكما قال ابن عاشور :« ويجوز أن يراد بالبأس الشديد ما يشمل بأس عذاب الآخرة ، وبأس عذاب الدنيا . . . ويكون استعمال ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ في معنييه الحقيقي والمجازي »[١] .

وقد ذكروا أن عطف قوله : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ (الكهف:٤) ، على قوله : ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ من باب عطف الخاص على العام[٢] ، وهو تناسب مع مقام الزجر ، وشيء آخر وراء هذا التخصيص وهذا العطف هو أن أول مقتضيات وصف الكتاب بأنه قيم ، الزجر عن أن يكون لمنزله شريك ، وذلك ما تراه متعالي الصدى عقب كل إنذار وتبشير وأثناء كل قصة ، وفي بأس الدنيا الشديد ، وبأس الآخرة الشديد ، وقد ذكروا أن القائلين هم كفار العرب واليهود والنصارى[٣] .

واستظهر ابن عاشور[٤] أن يكون المراد كفار العرب نظرا لنزول السورة في مكة وليس الأمر كما يقول ، لأن سبب النزول هو جزء من المقام

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٩/١٥ .
(٢) مفاتيح الغيب ٢٣٨/١٠، والصاوي على الجلالين ٢/٣ .
(٣) مفاتيح الغيب ٢٣٨/١٠، وأبو السعود ٦٧٥/٥ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٥١/١٥ .

ووسيلة معينة على استظهاره فقط وحتى بالنظر إليه ، فالذين أذوا كفار مكة بهذه المسائل الثلاثة هم اليهود .

ولما كان ادعاء الولد لله يقتضي اتساع علم المدعي هذه الفرية جاءت هذه الجملة التي نفت العلم عنهم وعن آبائهم بهذا الشأن بما لا نظير له في الذكر الحكيم ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ (الكهف:٥)، ومن عجائب الذكر الحكيم أنه لم يقع نفي العلم عن الآباء في قرن واحد بهذا الأسلوب الصريح إلا في سورة الأنعام في قوله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۚ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ . . . ﴾ (الأنعام:٩١) ، ومن الأعجب أن نفي العلم عنهم وعن آبائهم جاء عقب إنكارهم إنزال الكتاب على أي من البشر وأن الكهف افتتحت بعد الثناء بذكر إنزال الكتاب ، فتقاربت مع الأنعام في افتتاحهما بالثناء ، كأن من مقتضيات إثبات الألوهية ـ الذي هو مقصود الأنعام سورة الإيجاد الأول على ما قرر البقاعي ـ إنزال الكتاب الذي هو قيم على الإبقاء الأول وإنكار الثاني يقتضي إنكار الأول فكان ذلك التركيب مترجما ـ مع تواصله مع المطلع ـ عن سر اختصاص السورة هنا بقصة موسى والخضر ، وذي القرنين وأصحاب الكهف .

ثم فرع على زجرهم عن اتخاذ الشريك بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ (الكهف:٦) ثم ربط هذا المطلع بعلاقة مباشرة بقوله : ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ لأنهم يذكرون أن المراد بالحديث «القرآن الذي عبر عنه في صدر السورة بالكتاب»[1] ويتعالى صدى هذا التفريع في قوله : ﴿ وَٱصْبِرْ

(١) يراجع في ذلك : الكشاف ٤٧٣/٢، البحر المحيط ٩٨/٦، ومفاتيح الغيب ٢٤٠/١٠، وأبو السعود ٦٧٦/٥ وغيرها .

﴿ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ (الكهف:٢٨) ، ووقع بعد التفريع قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ (الكهف:٧،٨) ولا كهذا التركيب الجامع في الذكر الحكيم ، وقد وقع ـ كما قال ابن عاشور ـ موقع التعليل للتفريع وهو متواصل مع لام الغرض وما دخلت عليه كما أبصره ابن عاشور في التعليق على الآيتين بقوله : «هذا تعريض بأنه سيحل بهم قحط السنين السبع . . . ولهذا اتصال بقوله : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا . . . ﴾»[1] وذلك تبعا لما ارتضاه من وقوع البأس الشديد في الدنيا فرارا من اعتبار التكرار في الإنذار ، لكن الزجر هو الذي اقتضى التكرار إن تقبلنا كونه تكرارا .

وصدى هاتين الآيتين اقتضى زجر كفار مكة عن الاغترار بزينة الدنيا في قوله : ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ واقتضى ورود قصة صاحب الجنتين في هذه السورة دون غيرها ووضع الذكر الحكيم معالم دالة مباشرة داخل ما ذكرناه إشارة إلى هذه العلاقة وعناصر البيان عن المقصود الذي أجمله المطلع الزجر عن الشريك ـ الذي اقتضى إثبات الولاية لله والعلم ونفاهما عن غيره ، ووضع روافد هذا العنصر في رافدي إنذار وتبشير يتعالى فيهما صوت الزجر والتقويم ، وعنصر آخر هو النهي عن الاغترار بالدنيا وزينتها لأن الاغترار بها يقتضي إثبات الشريك ، وجاءت الآيات الدالة على هذا العنصر في الرافدين اللذين جاء فيهما النهي عن الشريك سبيلي البيان عن المقصود المجمل في المطلع .

وقد اقتضى ترتيب هذه العناصر مجيء قصة الكهف أولا ، لأن قطبها النهي عن اتخاذ الشريك ومع دورانها حول هذا القطب تظهر فيها سمات العناصر الأخرى في تشابك بديع ، والاستبصار بنور هذه الآية ـ التي لم

(١) التحرير والتنوير ١٥/٢٥٦ .

ترد فى غير هذه السورة ـ : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (الكهف:٤ ، ٥) هو الذي ينور بناء البيان في مثل قوله : ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ (١٤) ووصف القول بالشطط من نور قوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ وقوله : ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (١٥) من نور قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ من نور قوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ وأولهما تعجب ، وثانيهما استفهام إنكاري تعجبي ، ومع أن الفتية قاموا فوحدوا الله وكانت هذه الآيات كافية في الدلالة على اعتزالهم أقوامهم ، إلا أنه صرح بسبب هذا الاعتزال ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (الكهف:١٦) تناسبا مع الزجر عن الشريك ، ثم نفى البيان العلم عن هؤلاء الفتية ، الذين كان أمرهم عجبا عند الناس ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ فبادروا بنسبة العلم إلى الله ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ .

ثم يعلو صوت الزجر عن الشريك في إطار الإنذار ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف:٢٠) وهو يتقابل مع قوله : ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ ويترجم أن قوله : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ يكون قائما أبدا تقابلا مع أجر المؤمنين ، ويتعالى صوت الزجر في بيان سبب الإعثار عليهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ (الكهف:٢١) ، ولعل البيان عن هذا الوعد هو النذارة والبشارة الواردة عقب المطلع ، والمفسرة داخل السورة ناظرة إليه .

ويتعالى صدى قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ في قوله : ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (الكهف:٢٢) ثم على النبي ﷺ التوقيف في العلم والفعل على الله وحده ، وهو متقابل مع قوله ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ لأن لله ـ سبحانه ـ كل العلم وهو ما تعالى صداه بعد في قوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٢٦) والتركيب هاهنا جاء مقلوبا لقوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ إذ وقع نفي العلم بعد حكاية اتخاذهم لله ـ تعالى ـ ولدا ، وقد جاء هاهنا مثبتا العلم أولا نافيا الشريك ثانيا ، تقابلا مع بداية قصتهم من قوله : ﴿ إِذْ قَامُوا۟ ﴾ ومع الآيات التي ذكرناها من قوله : ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ (الكهف:٤) لأن الذين عثروا عليهم كانوا مؤمنين وهو ما أبصره البقاعي في المقصود الذي قرره حيث أوجب أمرهم الوحدانية مع أن سبب اعتزالهم هو الشرك .

وبعد هذه القصة وقع قوله : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ (الكهف:٢٧) وهو يلفتنا إلى المطلع ، وقد وقع عقب قصة اشتملت على عدم إهانة الفقراء اغترارًا بالسلطان ، وقصة توحيدهم وما اشتملت عليه الآيات من الإنـذار والتبشير ـ نمط عناصر المطلع كما حاولنا بيانه ـ وموقع هذه الآية في صدر آيات أخرى يذكرنا باستحضار نمط بناء عناصر المطلع ، وقد نبه على كون الكتاب (قَيِّمًا) بقوله : ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ والآيات من قوله : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ (الكهف:٢٨) إلى قوله : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف:٤٨) ناظرة إلى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الكهف:٧ ، ٨) الذي وقع تعليلا للتفريع الذي تفرع عن النهي عن اتخاذ الشريك ، الذي زجر عنه كما وصف الكتاب .

ومن العجب العاجب أن قوله : ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ ﴾ (الكهف:٢٨) يتكامل مع سورة الأنعام في قوله : ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ ﴾ (الأنعام:٥٢) وهناك نهي عن الطرد وهاهنا أمر بالصبر ، والذي هاهنا ألصق بالزجر ، لأن النهي عن طردهم أخف من الأمر بالصبر معهم ، والأئمة يذكرون في أسباب النزول سببا واحدا في الموضعين هو أن جماعة من المؤلفة قلوبهم قالوا : «يا رسول الله إنك لو جلست في صدر المجلس ، ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جلابيبهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها ـ جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك»[1] ، والسورتان مفتتحتان بالثناء ، أولهما على الإيجاد الأول ، وثانيهما على الإبقاء الأول ، وهم يكادون يجمعون على نزول الأنعام جملة واحدة ، فالله بسر كتابه عليم .

وفي الآية معلم مباشر يدل على علاقته بالمطلع فقوله : ﴿ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ (الكهف:٢٨) ينادي على قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ (الكهف:٧) لذلك لا تراه في آية الأنعام ـ وهو يتواصل بالمطلع ـ كما حاولنا استبيانه .

وقد جاء الإنذار ببأس الآخرة ناظرا إلى المطلع ناهيك بذكره قبل البشارة موافقة للبناء في قوله : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا ... ﴾ وقد جاء قوله في وصف النار الذي لم يقع في غير هذه السورة ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا ﴾ (الكهف:٢٩) كناية عن إحاطة العذاب بهم وهو متقابل مع قوله : ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴾ في وصف أجر المؤمنين «وليس قوله أبدا بتأكيد لمعنى ماكثين بل أفيد بمجموعها الإحاطة والدوام»[2] .

---

(١) أسباب النزول ص٢٢٤ .

(٢) التحرير والتنوير ١٥/٢٥٠ .

وتجد قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (الكهف:٣٠) وهو من نور قوله ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الكهف:٢) وترى الذكر الحكيم يلفتنا إلى التقابل بين عاقبة الفريقين إلى المطلع بقوله مذيلا عقاب الكافرين ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف:٢٩) وقوله مذيلا ثواب المؤمنين ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف:٣١) بيانا عن الدوام في الجزاء والعقاب كما نورت آية المطلع بقوله : ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ .

وجاءت قصة صاحب الجنتين لأجل قوله : ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ كما نور القرطبى معلقا على قوله : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ (الكهف:٣٢) : « هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين وهو متصل بقوله : ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ »[1] .

بل ذكر الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ قبله أبدع من هذا فيما قال عند قوله : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ ﴾ (الكهف:٢٧) « اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى والخضر كلام واحد في قصة واحدة ، وذلك أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله ﷺ إن أردت أن نؤمن بك فاطرد . . . »[2] .

وفي قصة صاحب الجنتين تواصل مباشر مع عناصر البيان عن المقصود المجمل في المطلع فأنت ترى قوله ﴿ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (الكهف:٣٤) وما بعده (٣٥، ٣٦) ناظرا إلى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ... ﴾ ، وإنكاره الساعة ناظر إلى قصة الكهف في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ (الكهف:٢١) وترى قول المؤمن : ﴿ لَّٰكِنَّاْ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٣٨) ناظرا إلى قول أصحاب الكهف الذي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤١٢٩/٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٩٣/١٠ .

يتواصل مع المطلع من قوله : ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ ﴾ (الكهف:١٤ ، ١٥) وإلى قول أصحاب الكهف : ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف:٢٠) مع وقوع كل ذلك في سياق قوله : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ . . . ﴾ .

ويتعالى صدى العلاقة في قوله : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ (الكهف:٤٠) في النداء على قوله : ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ ولا كهذين التركيبين في الذكر الحكيم في وصف الأرض إذا هلك ما عليها ، وهما قد وقعا في إطار ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ الذي وقع في إطار وصف الكتاب بأنه (قيم) ، وقد وقع وصف الجنتين مهلكتين بعد وصفهما مزينتين وكشفت القصة عن سبب إهلاكهما ، وفي نمط بناء عناصر البيان عن المطلع .

ووصف الأرض وإن وقع في سورة السجدة متقاربا مع ما في الكهف في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ (الكهف:٢٧) إلا أن له هاهنا وجها آخر وسياقا متغايرا فالحديث في السجدة عن إحياء الأرض ، لكنه في الكهف حديث في إهلاكها ولذلك وصفت ما على الأرض بصيرورته ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ كما وقع في وصف جنتي الكافر ، والمفسرون يفسرون ﴿ جُرُزًا ﴾ بقولهم : «لا نبات عليها ولا زرع ولا غرس»[١] أو أنها «أرض بيضاء لا نبات فيها»[٢] أو «الأرض التي لا تنبت شيئا»[٣] أو الجرز «القاحل الأجرد»[٤].

---

(١) جامع البيان ١٣٠/١٥ .
(٢) الكشاف ٤٧٣/٢ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤٠٧٨/٥ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٥٨/١٥ .

أو «منقطع النبات من أصله»[1] ، ومقتضى السياق فيما ذكروه أن هذين الوصفين تشبيه لحالة إهلاك بعد حالة نفع ، لأن الله قال : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا ﴾ فهو منصرف إلى الأرض المنتجة لا القاحلة من أصلها ، وبذلك يتباين موقع لفظ (الجزر) مع ما في سورة السجدة .

وهم يفسرون ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ بما فسروا به ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ لكن الظاهر أن التشبيه الثاني لما على الأرض ، أشد في الوصف بالإهلاك من الأول ، ويبدو أن الذي اقتضى هذا الترقي هو تفصيل الزينة التي على الأرض بطريق قصة صاحب الجنتين وهذا بدع في كلام الله لن تجد له نظيرا في بيان البشر ، وقد لحظ الأئمة هذا الملحظ ، فيقول قتادة ـ رحمه الله ـ في ﴿ زَلَقًا ﴾ أي تصبح «أرضا ملساء لا شيء فيها . . . وعادت خرابا بلا قمح زلقا لا نبت في أرضها»[2] وهو أوقع من تفسير ابن عباس فيما قال : فتصبح صعيدا زلقا مثل الجرز ، وبما عزاه الطبري إلى ابن زيد في قوله : صعيدا زلقا وصعيدا جرزا واحد ليس فيها شيء من النبات»[3].

ثم كان ذهاب الجنتين داعيا لعدم الإشراك ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٤٢) مع أنهما كانتا سبب الإشراك نمط قصة أصحاب الكهف ، وقوله : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ (الكهف:٤٣، ٤٤) من نور قوله : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ (الكهف:٢٧) الواقع في إطار وصف الكتاب بأنه (قيم) وقصص السورة دائر

---

(١) المفردات ، ص٩١ .

(٢،٣) جامع البيان ١٦٣/١٥ .

في هذا المقصود ، كما أن ختام القصة يشاكل ختام قصة أصحاب الكهف ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٢٦).

ثم جاء قوله : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الكهف:٤٥) وهو تلخيص مركز لوصف قصة صاحب الجنتين وتعميمها في الخلق ، ولعل قوله : ﴿ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يكون بيانا للموصول في قوله : ﴿ مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ في الآية (٧) وهذا التصوير «أشبه بحال الصاحب الذي أحيط بثمره»[١] إلا أنه جاء انتقالا من تصوير حياة خاصة إلى حياة عامة كما نوره البقاعي «لما أتم المثل لدنياهم الخاصة بهم . . . ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس في قلة بقائها . . .»[٢] ، والملحوظ أن التشبيه يطوي كل مراحل الإنبات ، تصويرا لسرعة زوال الحياة وقلة بقائها ، ناهيك بتعاقب الفاءين في تصوير هذه السرعة ، وما اقتضاه السياق من تصوير الزينة الذي أفيد من قلب الإسناد في قوله : ﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ ولم يقل ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ كما قال في سورة الحديد ، لأن هذه المرحلة تعلم بالإهلاك أو الانتهاء[٣] ، ثم وقع قوله : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الكهف:٤٦) كالتذييل للآيات من قوله : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ وكأن السياق يلفتنا إلى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الكهف:٧) وظاهرا تواصلها مع المطلع .

وشيء بديع ينوره الذكر الحكيم فبعد تذييل هاتيك الآيات بالآية المذكورة جاءت آية مع اتساع ذكر مواقف القيامة إلا أن لها علاقة مباشرة

---

(١) الإعجاز البلاغي ص١٠٨، ١٠٩ .

(٢) نظم الدرر ٦٧/١٢ .

(٣) لمزيد من البسط يراجع تحليلنا لتشبيهات الحياة الدنيا في القرآن الكريم بعنوان أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم، ص٢٣، ٢٤ وما بعدها، دكتور إبراهيم الهدهد، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ .

بما اختصت به من قوله : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ (الكهف:٤٧) أي مستوية ، ألا تراه ينادي على قوله : ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ وقوله : ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (الكهف:٨) وقد أعقبت وصف المال والبنون بالزينة مع ضميمة أن هذه التراكيب لم تقع في غير هذه السورة الكريمة .

وكان ما استبصرناه من نور قول الرازي عند قوله : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ... ﴾ «اعلم أن المقصود اضرب مثلا آخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها ، والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين»[1].

وقد جاء عقب هاتين الآيتين بذكر الكتاب ما لا نظير له في الذكر الحكيم ، وهو وإن كان الكتاب الحافظ لأعمال كل عبد ، إلا أنه من أدوات الزجر ، ذلك قوله : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الكهف:٤٩) بهذا النظر والترتيب التنازلي للمطلع وعناصره .

ولعل سياق الأغنياء المتكبرين على الفقراء في إطار الزجر هو الذي يفسر اختصاص السورة بما جاء في قصة إبليس من قوله : ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ (الكهف:٥٠) كما نوره الرازي بقوله : «اعلم أن المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين ، وهذه الآية المقصود من ذكر عين هذا المعنى وذلك لأن إبليس إنما تكبر على آدم . . .»[2] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٣١٧/١٠ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣٢٩/١٠ .

ولعل قوله : ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (الكهف:٥١) الذي لم يقع في غير هذه السورة ناظر إلى قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ (الكهف:٥) الذي لم يقع في غير هذه السورة أيضا .

ولقد كان ابن عاشور ـ رحمه الله ـ ينظر إلى الآية مستحضرا آيات السورة كلها كما قال في قوله : ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ (الكهف:٥٤) « عطف على الجمل السابقة التي ضربت فيها أمثال من قوله : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ﴾ ولما كان في ذلك لهم تصنع ، وما لهم منه مدفع عاد إلى التنويه بهدى القرآن عودا ناظرا إلى قوله : ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ ﴾ وقوله : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ ﴾ »[1] .

ويأتي قوله تعالى : ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾ (الكهف:٥٩) ولا يعلمه إلى الله ـ سبحانه ـ فالآية تمهيد لعرض قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ في العلم ، وهي تتواصل مع قوله : ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ ﴾ (الكهف:٥١) وقوله : ﴿ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴾ (الكهف:٤٨) وغير ذلك إلى قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ (الكهف:٥) .

ولقد أشار الرازى ـ رحمه الله ـ إلىعلاقة هذه القصة بما قبلها بقوله : « وهذا وإن كان كلاما مستقلا في نفسه إلا أنه يعين على ما هو المقصود في القصتين السابقتين .

أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار ، فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله . . . ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له . . . وأما نفع هذه

(١) التحرير والتنوير ١٥/٣٤٦ .

القصة في قصة أصحاب الكهف ، فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة : إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا ، وهذا ليس بشيء ، لأنه لا يلزم من كونه نبيا من عند الله ـ تعالى ـ أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع ، كما أن كون موسى عليه السلام نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه »[1].

ولعل سر اختصاص السورة بهذه القصة ظاهر لدوران مقصودها على وصف الكتاب بأنه قيم ، وأن ادعاء الشريك يقتضي العلم والعلم لله ـ وحده ـ وظاهر نمط الزجر من الخضر لموسى عليه السلام وهي في منتهى التناسب مع قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ ثم تأمل ما اختصت به السورة من قوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الكهف:٢٣، ٢٤) وما قاله موسى عليه السلام ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ (الكهف:٦٩) وكل جار في نفي العلم عن كل أحد ونسبته إلى الله ـ وحده ـ وذلك ما ختمت به القصة التي بينت اتساع علم الخضر ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (الكهف:٨٢) .

وشبيه بها قصة ذي القرنين الذي أصلح الله به الأرض ، وقامت قصته على الزجر وبدئت بقوله : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (الكهف:٨٤، ٨٥) كأن لم يفعل شيئا مما ذكر بعلمه ، وإنما كان متبعا لأسباب الله ولأن للقصة اتصالا بقوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ﴾ (الكهف:٥) لذلك تكرر قوله : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ قبل سرد أي من قصته ، ثم ختم قصته بقوله : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ (الكهف:٩٨) وهو متواصل

(١) مفاتيح الغيب ١٠/٣٤٠ .

مع قوله : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ (الكهف:٥٩) الذي يقع في السياق الذي سبق ذكره .

وكل تراكيب قصتي موسى والخضر وذي القرنين فيها نور قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ الذي لم يرد في غير هذه السورة ، والذي جاء في إطار الزجر في الشريك الذي هو من مقتضيات وصف الكتاب بأنه (قَيِّمٌ).

ثم توالت الآيات جارية في إطار قوله : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ (الكهف:٢) من قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ (الكهف:٩٩) إلى آخر السورة وترى علامات التقابل ظاهرة ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ (الكهف:١٠٢) يقابل قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (الكهف:١٠٧) وأعقبها بقوله : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ (الكهف:١٠٨) ، وهو من نور قوله : ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ (الكهف:٣) وجاء قوله ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ ﴾ (الكهف:١٠٩) وهو من نور قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ﴾ (الكهف:٥) ، ثم أعقبه بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (الكهف:١١٠) بعد بيان عدم تناهي علمه ، أبان عن وحدانيته تعالى وهو مقلوب قوله : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ﴾ (الكهف:٤ ، ٥) وهذا من بيان القرآن العجيب في التواصل والترابط .

وقد كان لابن عاشور أن يقول عند قوله تعالى ـ : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا . . . ﴾ » لما ابتدئت هذه السورة بالتنويه بشأن القرآن ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد . . . وذكر فيها من أحسن القصص . . . حول الكلام إلى الإيذان بأن كل ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى »[1] .

(١) التحرير والتنوير ٥١/١٦ .

ولما تكلم عند قوله تعالى : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ . . . ﴾ قال : «أي ما أنا إلا بشر لا أتجاوز البشرية إلى العلم بالمغيبات ، وأدمج في هذا أهم ما يوحى إليه ، وما بعث لأجله ، وهو توحيد الله تعالى . . . وهذا من رد العجز على الصدر من قوله في أول السور ﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴾ فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة ، إذ جعل التوحيد أصلا لها ، وفرع عليه الأصلين الآخرين ، وأكد الإخبار بالوحدانية بالنهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى وحصل مع ذلك رد العجز على الصدر ، وهو أسلوب بديع»[1] .

ثم إن القصر ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ ﴾ يناسب صفة العبودية في المطلع ﴿ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ﴾ وصلة الموصول في المطلع ﴿ أُنزِلَ ﴾ تثبت صدقه وهو ما صرح به في الخاتمة ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ ولما كان رأس الأمر في التقويم النهي عن الشريك نهى عنه في الخاتمة ، كما شاع النهي عنه في قصة صاحب الجنتين وقصة أصحاب الكهف .

والحمد لله على ما وفق . . .

* * *

(١) التحرير والتنوير ١٦/٥٥ .

المبحث الرابع

سورة الفرقان

كانت هيئة تركيب مطلع سورة (الفرقان) مضيئة للأئمة تحديد مقصود السورة وكانوا في هذا الضبط لمقصود السورة ناظرين إلى جريان معاني السورة مقارنة بتركيب مطلعها .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : «ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن ، وذكر مطاعن الكفار في النبوة والرد على مقالاتهم»[1] ، وظاهر أن القرطبي ـ رحمه الله ـ نظر إلى ما صدرت به السورة من قوله : (الفرقان) لأن قوله : (وذكر . . . . . والرد) إنما كانا لأجل الجملة الأولى ، فهذه المطاعن وتلك الردود جريا في إطار التفريق بين الحق والباطل كما يدل عليه معنى (الفرقان).

ويظهر هذا المقصود بوضوح عند ابن الزبير ، الذي يبرز لنا خصائص هذه المطاعن التي ذكرها القرطبي ، يقول : بعد إجماله ما تضمنت سورة النور ، وبيان ما ختمت به من بيان عظيم قدر النبي ﷺ «أتبعه ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ... ﴾ وهو القرآن الفارق بين الحق والباطل ، والمطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر والكفر ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ فيحذرهم من مرتكبات المنافقين والتشبه بهم ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤٨٦٣/٦ .

ثم تناسج الكلام ، والتحم جليل المقصود من هذا النظام»[1] ، وقوله : ثم تناسج . . . إلخ يواري علما جما أدى إلى هذا القول ، والذي يظهر أن ما صدرت به السورة (الفرقان) نبه ابن الزبير إلى جريان معاني السورة في إطار الفرق بين الملتبسات ، وبيان الحق من الباطل مهما بالغوا في كتمان الحق والتستر عليه ، ثم يكشف لنا ما اختصت به السورة من رد المطاعن فيقول : «وتضمنت هذه السورة من النعي على الكفار والتعريف ببهتهم وسوء مرتكبهم ، ما لم يتضمن كثير من نظائرها كقولهم : ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾ (الفرقان:٧) ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ (الفرقان:٨) وقولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (الفرقان:٣٢) وقولهم : ﴿ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ (الفرقان:٦٠) إلى ما عضد هذه وتخللها ، ولهذا ختمت بقاطع الوعيد وأشد التهديد ، وهو قوله سبحانه «فقد كذبتم»[2] وظاهر أنه كشف عن رد المطاعن ـ التي هي من خصائص السورة ـ وهي متصلة بالمطلع ، إذ هي في حق من بلغ هذا الفرقان ، وكان توزع رد هذه المطاعن على آيات السورة كاشفا لابن الزبير أن ما تخللها من آي يعضدها والأمر في كشف علائق الأنساب بين هذه الآي ، وبين رد هذه المطاعن ، وبين كل ذلك ، وبين مطلع السورة الكريمة الذي يحمل مقصودها فذلك قول ابن الزبير ثم تناسج الكلام ...» .

وكان تصدير السورة بالفرقان ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ والقيدان التابعان لهذه الجملة ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ، وما اختصت به السورة من ردّ المطاعن على النبوة كما ذكر ابن الزبير

(١) البرهان لابن الزبير ص١٣٦ .

(٢) البرهان لابن الزبير ص١٣٧ .

ـ كل ذلك كان داعيا الطيبي ـ رحمه الله فيما نقل عنه ـ أن يجعل مدار السورة فيما وقع بعد لام الغرض التي علقت ما بعدها بالجملة الأولى ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ فقال : «مدار هذه السورة على كونه ﷺ مبعوثا إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة استهلالها ولذلك افتتحت بما يثبت عموم رسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس بقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ ﴾»[1] .

كل ذلك جعل البقاعي ـ رحمه الله ـ يبصر مقصود السورة ، ويكشف عن علائق الأنساب بينه وبين ما ورد لأجل هذا المقصود فيقول : «ومقصودها : إظهار شرف الداعي ﷺ بإنذار المكلفين عامة بما له ـ سبحانه ـ من القدرة الشاملة المستلزم للعلم التام ، المدلول عليه بهذا القرآن المبين المستلزم لأنه لا موجود على الحقيقة سوى من أنزله ، فهو الحق وما سواه باطل وتسميتها بالفرقان واضح الدلالة على ذلك ، فإن الكتاب ما نزل إلا للتفرقة بين الملتبسات وتميز الحق من الباطل ليهلك من هلك عن بينة ، فلا يكون لأحد على الله حجة ، ولله الحجة البالغة»[2].

وهو إفراز لكل ما مضى فما ذكره القرطبي كان عند البقاعي هو السبيل إلى البيان عن تمام قدرته ـ سبحانه ـ وتمام علمه . وما ذكره ابن الزبير من الحجج يتعلق بإظهار شرف الداعي ، وبوسعنا أن نقول : إن مقصود السورة بيان شرف النبي ﷺ والسبيل إلى ذلك كونه ﷺ نذيرا للعالمين ، وسبيل هذا السبيل الفرقان المنزل من الموصوف بتمام القدرة وتمام العلم ـ جل وعز ـ وانساقت آي السورة في هذا النظام . فالله أعلم .

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٤/١٨، ٥٢/١٩ .

(٢) مصاعد النظر ٣١٧/٢ .

وقد انطوى مطلع السورة على عدة بدائع واستحثت تراكيب السورة ومعانيها أهل العلم على النظر إلى هذه البدائع مقارنة بمعاني السورة وتراكيبها بما يظن فيه الخلاف عند بادئ النظر ، فقد اختلفوا في تأويل ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، وقد ندر أمثاله في كلام بلغاء العرب ، ولهذه الندرة كان في طالع هذه السورة براعة المطلع عند ابن عاشور[1].

وقد ذكروا أنه بمعنى « (تزايد في الخير) أو (تعالى عطاؤه زاد وكثر) أو (دام وثبت إنعامه) أو (تمجد) أو (تعظم) أو (تنزه في ذاته وصفاته وأفعاله على النقائض ومماثلة مما سواه) »[2].

وكل مراد ـ إن شاء الله ـ بحسب النظر إلى آيات السورة ، والذي يغري بذلك هو النظر في الآيتين اللتين وليتا مطلع السورة ٢ ، ٣ فمراد التمجيد والتعظيم يتناسب مع قوله : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ومراد التقديس والتنزية يتناسب مع قوله : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ ومراد التزايد في الخبر يتناسب مع قوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ ، ومما يتأيد به ذلك أنه قابل بين ما وصف به ـ سبحانه ـ نفسه وما ادعوه لآلهتهم بما جمع كل ما ادعوه لآلهتهم في سياقات سور الذكر الحكيم قاطبة في سياق الفرقان بين الحق والباطل ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان:٣) .

---

(١) يراجع التحرير والتنوير ٣١٥/١٨ .

(٢) ينظر : جامع البيان ١٣٦/١٨، والقرطبي ٤٨٦٣/٦، ٤٨٦٤، والبحر المحيط ٤٨٠/٦، والصاوي على الجلالين ١٠٢/٣ .

وكل ما دار في السورة الكريمة من آيات التوحيد والتنزية والإنعام والنشور متعلق بهاتين الآيتين اللتين لا نظير لهما في الذكر الحكيم ، وقد تعلقتا بالمطلع تعلقا ظاهرا ، فالاسم الموصول في قوله ﴿ **ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ** ﴾ مبدل من الاسم الموصول في قوله ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِى** ﴾ فيما قال أبو جعفر[1] ـ رحمه الله ـ .

والسورة من أولها إلى آخر الآية الثالثة «براعة استهلال بأغراضها ، وهو يتنزل منزلة خطبة الكتاب أو الرسالة»[2] عند ابن عاشور وقد ألمح إلى التقابل بين الآيتين الثانية والثالثة بقوله «وجملة : ﴿ **وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً** . . .﴾ مقابلة لجملة ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا** ﴾ لأن أعظم مظاهر تقدير الخلق هو مظهر الحياة والموت»[3] وبناء اللغة هو الذي أضاء للبقاعي تحديد مقصود السورة فهذا التقابل يثبت له ـ سبحانه ـ تمام القدرة والعلم ، وينفيهما عن آلهتهما .

ومن هذه البدائع ما صدرت به السورة من لفظ (الفرقان) ، وقد اختلفوا في مراد الله ـ تعالى ـ منه على أقوال ، إما أن يكون سمي به القرآن ، لفصله بين الحق والباطل ، أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقا مفصولا بين بعضه وبعضه في الإنزال فيما ذكر جار الله[4] .

واستظهر ابن المنير المعنى الثاني ناظرا إلى قوله : فيما اختصت به السورة ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً** ﴾ (٣٢) فيما

(١) ينظر : جامع البيان ١٣٦/١٨ .
(٢) التحرير والتنوير ٣١٩/١٨ .
(٣) المرجع نفسه ٣٢٠/١٨ .
(٤) الكشاف ٨٠/٣ .

قال : «والأظهر هاهنا هو المعنى الثاني ، لأن في أثناء السورة بعد آيات ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ ﴾ قال الله تعالى : كذلك أنزلناه مفرقا كذلك لنثبت به فؤادك ... فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة ـ والله أعلم ـ كالمقدمة والتوطئة لما يأتى بعد»[1].

ولا يمنع ما ألمع إليه ابن المنير المراد الأول ، بالنظر إلى تراكيب الآيات في سياقات الردود على مطاعن القرآن والنبوة ، كما سنحاول بيان شيء منه إن شاء الله . وذكروا أيضا ـ ناظرين إلى سياقات اللفظ في القرآن الكريم[2] ـ «أنه اسم لكل منزل . . . وفي تسميته فرقانا وجهان : أحدهما ؛ لأنه فرق بين الحق والباطل ، والمؤمن والكافر ، الثاني : لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام»[3].

وكل مراد إن شاء الله ـ ففي كونه اسما لكل منزل نظر إلى ما وصف به كتاب موسى عليه السلام وكل ما أنزل من عند الله كان مفرقا بين الحق والباطل وسياق السورة مفرق بين من أنكروا الرحمن وجحدوه ، ومن آمنوا به وعبدوه وفيما جاء من وصف عباد الرحمن جماع الحلال والحرام إلا أن اختلافهم في المراد جاء من اختلاف جهات نظرهم ، وعلى طلاب العلم محاولة الكشف عن جهات نظر الأئمة وعند الحق هي تتكامل وتتلاقى جميعا عند حسن النظر ، وتكشف آفاقا لا حد لها في درس لغة القرآن الكريم ودلالات ألفاظه .

ويدلنا البقاعى على الجمع بين ما رأوه من دلالات بالنظر إلى سياق السورة فيما علل به لتصدير السورة بالفرقان فيقول : «ولما كان تكرار

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف بهامش الكشاف ٣/٢٨١ .
(٢) البقرة ٥٣، ١٨٥، آل عمران ٤، الأنفال ٢٩، ٤١، الأنبياء ٤٨ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦/٤٨٦٤ .

الإنذار الذي هو مقصود السورة أنفع ، وتفريقه في أوقات متراسلة أصدع للقلوب وأردع ، وكان إيضاح المشكلات في الفرق بين الملتبسات أعون ، مما يكون علة ، عبر بما يدل على الفرق وقدمه فقال : ﴿ نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ... ﴾ »[1] وهذه طريقة السلف في النظر ، كما تمليها عليهم لغة القرآن الكريم وسياقاته .

ورأى العلامة ابن عاشور في إيثار اسم الفرقان بالذكر في هذا الموضع « إيماء إلى أن ما سيذكر من الدلائل على الوحدانية وإنزال القرآن دلائل قيمة تفرق بين الحق والباطل »[2] ، والذي يؤيده فيما أبصر استقراء سياق السورة وإسناد الفعل إلى الذي فيما أبصر أبو حيان من قبل بقوله : « وجاء الفعل مسندا إلى الذي وهم وإن كانوا لا يقرون بأنه ـ تعالى ـ هو الذي نزل الفرقان ، فقد قام الدليل على إعجازه ، فصارت الصلة معلومة بحسب الدليل ، وإن كانوا منكرين لذلك »[3] وفيما حرره أبو السعود بعد قوله : « وإبراز تنزيل الفرقان في معرض الصلة ، التي من حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع ، مع إنكار الكفار له ، لإجرائه مجرى المعلوم المسلم ، تنبيها على كمال قوة دلائله ، وكونه بحيث لا يكاد يجهله أحد كقوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ »[4] . وليس بخاف عليك أنهم لم يهتدوا إلى هذه الإشارة بالنظر إلى المطلع فحسب وإنما نظروا إلى تركيب المطلع مقارنا بتراكيب السورة .

---

(١) نظم الدرر ١٣/٣٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١٨/٣١٧ .

(٣) البحر المحيط ٦/٤٨٠ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٧/٢٣٢ بهامش تفسير الرازي .

والذي يدلنا على هذا النظر بجلاء ما رآه ابن عاشور في وصفه ﷺ بـ(عبده) فهو يرى أن «هذا الوصف (عبده) تقريب له وتمهيد لإبطال طلبهم منه في قوله : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾ (الفرقان:٧)»[١] ، وأنت عليم بأن هذا الوصف جاء في صدر (الإسراء) وصدر (الكهف) ، ولم يقل أحد من الأئمة هذا القول في هذين الموضعين ، وإنما يعللون لهذا الوصف بما يجري في سياق السورة التي جاء في صدرها وبما يتناسب معها ، ولا يمنع التعليل في كل موضع بما اختص به السياق من أن يكون الغرض العام من وصفه ﷺ بالعبودية هو التشريف .

وقد استدعاهم وصفه ﷺ بالنذارة دون البشارة في المطلع ، استدعاهم ذلك النمط اللغوي إلى استنباط علل ، هي عند النظر مستضيئة بسياق السورة .

يقول الطيبي ـ رحمه الله ـ «فى اختصاص النذير دون البشير سلوك طريق براعة الاستهلال ، والإيذان بأن هذه السورة مشتملة على ذكر المعاندين المتخذين لله تعالى ولدا»[٢] ويقول أبو السعود : «نذيرا أو إنذارا مبالغة أو ليكون تنزيله إنذارا ، وعدم التعرض للتبشير ، لانسياق الكلام على أحوال الكفرة»[٣] .

والذي يغريك بما رآه البقاعي في تحديد المقصود تقديمه المنذرين (للعالمين) وهو يفيد بذاته عموم رسالته ﷺ المكلفين ، بما يظهر شرفه على إخوانه المرسلين من قبل بإنذاره المكلفين جميعا ، وأنت تجد تشاكلا

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٧/١٨ .

(٢) مع بلاغة القرآن ص٩، ١٠ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٣٢/٧ بهامش الرازي .

بديعا بين ما طلب الكفار من إنزال القرآن جملة واحدة بدل أن يكون مفرقا ، وبين إرساله ﷺ إلى العالمين كافة ولله ابن عاشور فيما يقول : عند قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ (الفرقان:٥١) «والذي أختاره أن هذه الآية متصلة بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ (الفرقان:٣٢) ومما يزيد هذه الآية اتصالا بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴾ أن في بعث نذير إلى كل قرية ما هو أشد من تنزيل القرآن مجزأ فلو بعث الله في كل قرية نذيرا لقال الذين كفروا ، لولا أرسل رسول واحد إلى الناس جميعا»[(١)].

وهو متواصل مع قوله : ﴿ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ كما ترى وهذه دقيقة من دقائق السلف في النظر وأنت ترى أصداء لغة المطلع تتعالى في النداء على تراكيب السورة كما تتعالى تراكيب السورة في النداء عليها ، فيما نَثَره الذكر الحكيم فقوله : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تكرر في السورة في ثلاثة مواضع (١-١٠-٦١) «وخصت هذه المواضع لأن ما بعدها عظائم ، والأول : ذكر الفرقان ، والثانى : في ذكر النبي ﷺ ، والثالث : البروج والسيارات»[(٢)] .

ولتلوح لنا بالمعالم المباشرة على علاقات تراكيب السورة بمطلعها ، وقد وقع هذا اللفظ في سياقات أخرى[(٣)] ، وليس له هذه المواقع ، وقد جاءت مواقعها الثلاثة مسندة إلى الاسم الموصول كلغة المطلع ، وفي مواقعها ما يرجح ما رأيناه من أن يكون المراد بـ ﴿ تَبَارَكَ ﴾ كل ما ذكره

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٥٢ .

(٢) البرهان للكرماني ، ص١٥٢ .

(٣) الأعراف ص٥٤، المؤمنون ١٤، غافر ٦٤، الزخرف ٨٥، الرحمن ٧٨، الملك ١ .

السلف ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا . . . ﴾ (الفرقان:١٠) يتناسب مع التزايد ، و ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الفرقان:٦١) يتناسب مع التمجيد والتعظيم والإنعام وغير ذلك ، كأن اسم الموصول في الموضعين مبدل من الاسم الموصول في المطلع ولا ريب أن هذه الإشارات من العلائق بين تراكيب السورة والمطلع .

ومما يذكر أن الضمير في (ليكون) في المطلع قد يعود إلى (عبده) وقد يعود إلى (الفرقان) وهو وإن رجح رجوعه إلى أقرب مذكور إلى أن جواز مرجعه إلى الفرقان مؤذن بتعانق بين الفرقان والنبي ﷺ في الطعون عليهما والردود ، كما لمح ابن عاشور في العلاقة بين قوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا ﴾ (الفرقان:٣٢) وقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ (الفرقان:٥١) .

وأسلوب السورة قاض بأن الآيتين اللتين وليتا المطلع (٢) ، (٣) لهما أصداؤهما في السورة ، وهما في العلاقة بالمطلع على ما عرفت ، وبعد هاتين الآيتين جيء بحكاية قول الكافرين في الطعن على الفرقان والنبوة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ (الفرقان:٤) ومن خصائص هذه الحجة أنهم هاهنا قالوا : ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ (الفرقان:٤) وهذا تراجع عما احتجوا به أدى إلى هذا الأسلوب سياقة هذه الحجة في سياق (الفرقان) ، ويظهر أثر هذا التراجع أكثر فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان:٥) كأنهم اعترفوا بأنه لا طاقة له بافترائه ، وقوله : ﴿ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان:٥) يبدي ما يحاولون ستره من الاعتراف بأحقية الفرقان كأنهم بمثابة استشكال كيف ذلك ومحمد أمامنا لا يغادرنا؟ فحاولوا دفع هذا

الاستشكال بالباطل . يقول جار الله في الآية : «أي دائما ، أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس ، وحين يأوون إلى مساكنهم»[1] .

وللحظ سياقه طعونهم على النبوة في سياق الفرقان قال جار الله في قوله : ﴿ **وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ** ﴾ (الفرقان:٧ ، ٨) فيما لحظه من تكرار (أو) «ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك ، حتى يتساندا في الإنذار والتخويف . . .

ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ، ويرتزق كما الدهاقين والمياسير»[2] ، ومما يغريك بأنه لحظ هذا الملحظ أنه لم يقل بهذا القول فيما اقترحوه في سورة الإسراء ، وموقع أو هنالك كموقعها هاهنا[3].

ولما كان الحق أبلج ، لم يرد رد لما اقترحوه ، لأن ما اقترحوه صار مثلا في الباطل ويعقد السياق هذه الآيات بالمطلع عقدا محكما بقوله : ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ** ﴾ (الفرقان:١٠) لأنه هو الذي نزل الفرقان ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ** ﴾ (الفرقان:١) والفرقان قاض بأنهم لا يحبون إلا باطل القول وزوره ، لذا فقد قال : ﴿ **بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ** ﴾ (الفرقان:١١) .

قال ابن عاشور عند الآية (١٠) : «ابتدئت السورة بتعظيم الله ، وثنائه على أن أنزل الفرقان على رسوله ، فلما أريد الإعراض عن باطلهم ، والإقبال على الرسول بتثبيته ، وتثبيت المؤمنين أعيد اللفظ الذي ابتدئت به

(١، ٢) الكشاف ٨٢/٣ .

(٣) الإسراء ٩٠، ٩٣ .

السورة على طريقة وصل الكلام بقوله : تبارك . . .»[1] ، ثم انساق الكلام إلى بيان أوصاف جهنم المتلائمة مع سياقة طعونهم في سياق الفرقان ، والمتقابلة مع أوصاف عباد الرحمن ، فيما يشير إليه السياق من العقد بينهما حيث قال عن الكافرين ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ** ﴾ (الفرقان:٦٠) وقال عن المؤمنين ﴿ **وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ** ﴾ (الفرقان:٦٣) ولا كهاتين الآيتين في الذكر الحكيم ، كما سنشير إلى شيء منه ـ إن شاء الله .

وذكر السياق آية جامعة في الرد على ما اقترحوه في قوله : ﴿ **وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا** . . . ﴾ (الفرقان:٦ ، ٧) ولا نظير لها في الذكر الحكيم ، كما أنه لا نظير لقوله : ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا** ﴾ (الفرقان:٢٠) ثم تابع البيان عن حال الكافرين بأسلوب ناظر إلى ما ذكر من أحوال السعير المعد لهم تأمل ﴿ **وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾** ﴾ (الفرقان:١٣ ، ١٤) أرأيت لم دعوا ثبورا ؟ ألا يشير هذا إلى حال حسرتهم وتندمهم؟ وقد ذكروا أن معنى ﴿ **إِذَا رَأَتْهُم** . . . ﴾ « تضيق عليهم ضيق الزج في الرمح ، (مقرنين) قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ، وقيل : يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد»[2] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٣٣٠ .

(٢) البحر المحيط ٦/٤٨٥ .

أو «قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال»[1] ، ولهذه الحسرة والتندم دعوا ثبورا .

وهو ينظر إلى قوله فيما اختصت به السورة ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى . . .** ﴾ (الفرقان:٢٧، ٢٨) والعض على اليد كناية عن الندم ، ثم تأمل هذه المفارقة بين العض على اليد ، والعض على الأنامل ، قى قوله : ﴿ **وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ** ﴾ (آل عمران:١١٩) ، والثاني في الدنيا والأول في الآخرة .

وقوله : ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ** ﴾ (الفرقان:٢٧) فيما ذكروا نزل فى عقبة ابن أبى معيط[2] في ارتداده بعدما شهد للنبي ﷺ طاعة لخليله أمية ابن خلف لعنهما الله ، وقد كان من حسرتهما وتندمهما في الدنيا ماعضا به على أيديهما ناهيك بما يلقيانه في الآخرة عند إلقائهما في مكان ضيق مقرنين داعيين بالثبور .

وترى مفردات السورة من باب متقارب «فالثبور ـ كما قال أبو جعفر ـ أصله في كلام العرب انصراف الرجل على الشيء يقال فيه : ما ثبرك عن هذا الأمر؟ أى ما صرفك عنه وهو في هذا الموضع دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا والإيمان بما جاءهم به نبي الله حتى استوجبوا العقوبة»[3] ، وهو ـ كما ترى ـ ناظر ـ إلى هذه الكناية ، والثبور بمعنى الهلاك ، وهو متقارب مع ما اختصت به السورة من قوله :

---

(١) جامع البيان ١٨/١٤٠ .

(٢) أسباب النزول ص٢١٥، ٢٥٢ بتصرف .

(٣) جامع البيان ١٨/١٤٠، ١٤١ .

﴿ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ (الفرقان:١٨) وتأمل : ﴿ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٢١) ، ثم تأمل ما اختصت به السورة من وصف عباد الرحمن ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان:٦٥) وغراما «أي هلاكا وخسرانا ملحا لازما»[1] تجده متقابلا مع وصف جهنم التي لها بعذابهم غرام أرأيت ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (١٢ الفرقان:) .

وتفسير الغرام ناظر أيضا إلى قوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ (الفرقان:١٩) ، ودل الذكر الحكيم على هذا التقابل بقوله : ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان:٦٦) بمقابلته بقوله : ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان:٧٦) .

قال القاضي البيضاوي : «حسنت مستقرا ومقاما مقابل ساءت مستقرا»[2] وما ختمت به السورة من قوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ (الفرقان:٧٧) وهو من بحر قوله: ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ (الفرقان:١٩) ، وقوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان:٦٥) ، وقوله : ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ (الفرقان:١٣) ولا نظير لهذه الآيات في الذكر الحكيم ، وعقدها بغرض السورة واضح جدا ، فمقصودها إظهار شرف الداعي بالنذارة التي أبان عنها الفرقان .

تأمل تصدير السورة بالفرقان ألست تراه يفسر اختصاص السورة بقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان:٢٢) قال جار الله «هذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو موتور ، أو هجوم نازلة أو نحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة»[3].

---

(١) الكشاف ٩٩/٣ .

(٢) أنوار التنزيل ١٥٢/٢ .

(٣) الكشاف ٨٨/٣ .

وقال القرطبي ناظرا إلى معنى الفرقان بتفريقه بين الحق والباطل «يريد تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال : لا إله إلا الله ، وأقام شرائعها عن ابن عباس وغيره»[1] كما كان هذا القرآن مفرقا بين الحق والباطل وذلك ظاهر التناسب بالنذارة للعالمين التي بها شرف النبي ﷺ .

وتجد صدى ذلك فيما اختصت به السورة من قوله ﴿ **وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ (الفرقان:٥٣) وهي آية كونية في التفريق بين الماءين ، كما أن القرآن آية في التفريق بين المؤمن والكافر والحق والباطل والحلال والحرام ، وقد عدها الزمخشري استعارة بقوله : «هي الكلمة التي يقولها المتعوذ ، وقد فسرناها وهي هاهنا واقعة على سبيل المجاز ، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه كما قال : لا يبغيان . . . فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ هاهنا ، وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة»[2] .

تأمل قوله : ﴿ **وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا** ﴾ (الفرقان:٣) وهو متقابل مع قوله : ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا** ﴾ (الفرقان:٢) الذي وقع معطوفا على جملة الصلة ﴿ **لَهُۥ مُلْكُ** ﴾ الذي جاء صلة لاسم الموصول الواقع بدلا من الاسم الموصول في المطلع ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ** ﴾ (الفرقان:١) تجد صداه في قوله : ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ** ﴾ (الفرقان:١١) وقوله : ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا** ﴾ (الفرقان:٢١) ، وهو أظهر ما يكون في قوله : ﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا** ﴾ (الفرقان:٤٠) ، وتأمل في سياق قوله : ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا** ﴾ (الفرقان:٢) اختصاص السورة بقوله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ**

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤٨٩٦/٧ .
(٢) الكشاف ٩٦/٣ .

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦ ﴾ (الفرقان:٤٥ ، ٤٦) .

قال ابن عاشور عند الآية : «وفيه انتقال إلى الاستدلال على بطلان شركهم ، وإثبات الوحدانية لله ، وهو من هذه الجهة متصل بقوله : في أول السورة ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً . . . ﴾ [(١)] .

ولهذا الاتصال فسر الأئمة السبات بالموت والنشور بالحياة في قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (الفرقان:٤٧) وقد فسر أبو جعفر الآية هذه ناظرا إلى قوله : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان:٣) بقوله : «وجعل النهار يقظة وحياة من قولهم : نشر الميت . . . ومنه قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ . . . وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في تأويل ذلك ، لأنه عقيب قوله : والنوم سباتا في الليل ، فإذا كان ذلك كذلك فوصف النهار بأن فيه اليقظة والنشور من النوم أشبه ، إذ كان النوم أخا الموت والذي قال مجاهد غير بعيد من الصواب ، لأن الله أخبر أنه جعل النهار معاشا ومنه الانتشار للمعاش ، ولكن النشور مصدر من قول القائل نشر فهو بالنشر من الموت والنوم أشبه ، كما صحت الرواية عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « إذا أصبح وقام من نومه ـ الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور »[(٢)] .

وهذا التفسير هو الراجح عند أهل العلم فيما ذكر أبو حيان[(٣)] ، وعلاقته بالمطلع كما عرفت ويؤيد هذا التأويل ما اختصت به السورة من قوله :

---

(١) التحرير والتنوير ٣٨/١٨ .

(٢) جامع البيان ١٤/١٩ .

(٣) البحر المحيط ٥٠٤/٦ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان:٦٢) و ﴿ خِلْفَةً ﴾ «هي الحال التي يخلف عليها الليل والنهار . . . والمعنى لينظر في اختلافهما الناظر فيعلم أن لا بد لانتقالهما من حال إلى حال، وتغيرهما من ناقل ومغير، ويستدل بذلك على عظم مَعْدِنِهِ، ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار»[1] أى من السبات ومن النشور، وهو متواصل مع ما قبله بالمطلع كما عرفت.

وقد عقد بالمطلع بهذا المعلم الظاهر قبله ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الفرقان:٦١)، وكانت هذه العلاقة ظاهرة ظهورا بينا عند البقاعي في قوله: «ولما ذكر حال النذير الذي ابتدأ به السورة في دعائه إلى الرحمن الذي لو لم يدع إلى عبادته إلا رحمانيته لكفى، فكيف بكل صفة جمال وجلال فأنكروه . . . ففصل ما أجمل بعد ذكر حال النذير، ثم من الملك مصدرا له بوصف الحق الذي جعله مطلع السورة، ردا لما تضمن إنكارهم من نفيه فقال: تبارك الذي جعل في السماء . . .»[2] وهو ناظر إلى المقصود الذي قرره من أنه إظهار شرف الداعي ﷺ.

والعلماء يجعلون مرجع الضمير في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ ﴾ (الفرقان:٥٠) إلى القرآن الكريم، ناظرين إلى جريانه من أول السورة، قال القرطبي: «يعني القرآن، وقد جرى في أول السورة قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى ...﴾ وقوله: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ ... ﴾ وقوله: ﴿ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[3].

---

(١) الكشاف ٩٩/٣ .

(٢) نظم الدرر ٤١٦/١٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤٩٣٢/٧، ٤٩٣٣، ورأى جماعة أن يكون عائدا إلى الماء . الطبري ١٥/١٩، الكشاف ٩٥/٣، البحر المحيط ٥٥/٦ .

« وأصل هذا التأويل مروي عن عطاء ، ولقوله بعده وجاهدهم به جهادا كبيرا »[1] .

وجاءت صفات عباد الرحمن متقابلة مع صفات الكافرين ، وقد جاءت هذه الصفات « حتى تستكمل السورة أغراض التنويه بالقرآن ، ومن جاء به ومن اتبعوه »[2] .

وأنت ترى أن قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (الفرقان:٧٣) متقابل مع قوله : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾

(الفرقان:٤٤) .

وهكذا تتشارب السورة الكريمة من بحر واحد ، وقد رأينا كيف كان الأئمة يستصحبون نور المطلع عند كل آية ، ثم ختمت السورة بكلمة جامعة تزيل غرور المشركين وكبرياءهم وفي ذلك تناسب مع المقصود من السورة الذي جاء في المطلع ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وهو انتهاء ناظر في المطلع مؤذن بتشارب تراكيب السورة من بحر واحد، فذلك قوله: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ (٧٧) وقد أبنا عن علاقة قوله ﴿ لِزَامًا ﴾ بقوله : ﴿ غَرَامًا ﴾ بقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ (١٩) .

والحمد لله على ما وفق . . .

* * *

(١) التحرير والتنوير ٥١/١٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٦/١٩ .